روايات عبير



آن ميثر

أرياف العذاب

٧٥

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 75

أرياف العذاب

رياح الحب تمر بالانسان وتحمله معها الى الأعالي... ولكن احياناً يأتي الحب مع ندى الصباح، هادئاً حنوناً خجولاً مقنعاً بقشرة لا تلبث ان تتكسر على شاطىء العواطف والمشاعر المتأججة.

جايك هوارد الجذاب ورجل الأعمال الناجح، الذي يكتسح الأخضر واليابس في سبيل مجده وتفوقه، اختار هيلين الجميلة، صاحبة النسب العريق ليتمم نجاحه ونصفه الآخر. «اشتراها» في ظروف مادية صعبة كانت تمر بها. ومضى قطار الزواج عدة سنوات، مغلفاً بسعادة زائفة امام المجتمع... الاذلال والتحقير اللذان يعاملها بهما جايك... وهذا الكابوس المرعب الذي اسمه النجاح والمال لم تعد هيلين تتحمّله... استفاقت مشاعرها في اول عطلة تمضيها مع زوجها، فأبت العودة الى الوراء والعيش في ظل الظروف الماضية. أتبقى معه وهو الذي يرفضها، فتلملم حبها وتسكت؟

ما هو موقف جايك حين تطلب الطلاق؟

١- مرآة الذاكرة

كان القطار السريع يقترب من محطة كينغز كروس في لندن، تحيط به على الجانبين أبنية سكنية عالية ليست محببة أبداً الى قلوب مخططي المدينة وضواحيها. كانت ناطحات السحاب الشاهقة الارتفاع أكثر توافقاً مع متطلبات العصر الحديث، وبالتالي أكثر ازعاجاً لمشاعر الذين خططوا في الماضي لكي لا يرتفع أي مبنى في عاصمة الضباب أو ضواحيها عن طابقين او ثلاثة.

رفع جايك هوارد نظره عن الأوراق المبعثرة أمامه ولاحظ باستغراب انه لم يشعر بانقضاء ساعتين ونصف الساعة تقريباً على مغادرته يورك. كم أصبح التنقل سهلاً هذه الأيام! كان بامكانه طبعاً ان يستقل الطائرة من يورك الى لندن، ولكنه يفضل القطار السريع لأنه يستمتع كثيراً بالرحلة. والسبب الأهم لذلك أن رحلة القطار تذكره بأيام شبابه وبانطباعاته الاولى عن المدن الكبيرة، وبأنه كان شاباً طري العود لم يختبر الحياة ويجربها.

نقر أحد مضيفي القطار باصبعه على باب مقصورته الخاصة وحياه بتهذيب. وعندما أشار اليه جايك بالدخول، فتح المضيف الباب وقال بأدب:

«ربع ساعة فقط يا سيد هوارد وتصل الى كينغز كروس. هل هناك أي شيء آخر تحتاجه يا سيدي؟ هل احضر لك شراباً آخر، مثلاً؟».

هزّ جايك برأسه وتناول من جيبه ورقة الخمسة جنيهات، وقال للمضيف وهو يعطيه اياها:

«لا شيء، شكراً. ولكن يمكنك تأمين ارسال حقائبي الى السيارة لدى

وصولنا».

«طبعاً يا سيدي. أرجو أن تكون قد استمتعت بهذه الرحلة».

استوى في مقعده وقال بعظمة مفتعلة:

«الى حد ما، شكراً».

ابتسم المضيف بتهذيب وأحنى رأسه مودّعاً، ثم غادر المقصورة. اما جايك فقد بدأ بجمع أوراقه المبعثرة على الطاولة أمامه ويضعها في حقيبته. وكان خلال هذه الرحلة من يورك الى لندن يقيّم ويدرس صفقة هافيلاند التي عقدها في الآونة الاخيرة. وشعر جايك من خلال تقييمه بأنه واثق من عدم وجود عثرات أو عوائق مفاجئة. فشركة هافيلاند للكيماويات ستصبح قريباً جزءاً من مؤسسة هوارد العملاقة. أنهى جمع اوراقه وتوضيبها في الحقيبة وأشعل سيكاراً فخماً وأخذ يقارن الفرق الشاسع بين الطقس الحار في الساحل الغربي للولايات المتحدة والطقس البارد في انكلترا. وابتسم جايك قائلا لنفسه انه حقاً برنامج غريب وفريد للعودة من كاليفورنيا الى لندن... عبر غلاسكو في اسكتلندة ومحطة السكك الحديدية في يورك. ولكن هذا هو خط سيره المعتاد. فهو دائماً يمضي الليلة الاولى لعودته الى انكلترا مع والدته التي تقيم في سلبي بمقاطعة يوركشاير. ولذلك كان يستقل الطائرة من مطار لوس انجلوس في كاليفورنيا الى مطار برستويك في غلاسكو ومن هناك يتوجه جنوباً.

وتحولت افكاره الى لندن، والى اللحظات المزعجة التي يمضيها بين الانتقال من القطار الى سيارته الفخمة التي يقودها سائقه الخاص. وكذلك الى وصوله في نهاية الأمر الى منزله الرائع في حي بلغرافيا الراقي... والى هيلين زوجته...

برقت عيناه عندما فكّر بهيلين. من المؤكد انها استلمت الورود الحمراء التي ارسلها اليها من غلاسكو، وبدون شك ستكون مستعدة لاستقباله والترحيب به. وتذكّر بسرور بالغ تلك الأمسيات الرائعة التي كان يمضيها مع زوجته بعد كل رحلة الى الخارج... وكيف يمتعها ويبهجها طوال السهرة بأخبار تلك الرحلة وتفاصيلها. ووعد نفسه بليلة مماثلة تصغي فيها هيلين الى أنباء رحلته الأخيرة. هيلين دائماً تصغي. وشعر جايك مرة أخرى بالاستغراب والحيرة ذاتها اللذين شعر بهما قبل ثلاث سنوات عندما

قبلت عرضه للزواج منه.

ولكنه بعد ذلك بفترة قصيرة بدأ يحتقرها ويزدريها. هو رجل كافح وجاهد طوال حياته لتحقيق النجاح. والده كان حائكاً صاحب دخل متواضع فاضطر للعمل بكدّ وتعب كي يصل الى أي مركز أو منصب. وكان يمضي جميع أيامه ولياليه ايضا في العمل ومتابعة الدراسة. كان مستعداً للذهاب الى أي أبعاد محتملة للوصول الى هدفه ومبتغاه: النجاح. كان جذاباً بشخصيته، ساحراً بأسلوبه الفذ وكلامه المنمّق... ومستعداً في الوقت ذاته لاستخدام هذه الصفات ليصل الى مبتغاه ويحصل على ما يريد. لم يتردد في اطراء شخص لم يكن يحبه أو التملق الى آخر يمجّه ويعتبره جديراً بالازدراء. وضمن له ذكاؤه الفطري ووعيه المكتسب تجاوز المشاكل والصعاب. ولم يكن جايك كوالده مهتماً بالحياكة أو بذلك المعمل الصغير وآلاته القديمة. بل كان منذ حداثة سنه مهتماً كثيراً بالكيماويات... تبهره دراسة المواد وكيفية تركيبها. وكانت شهادة الكيمياء التي نالها في جامعة ليدز أول خطوة رئيسية في انطلاقته العلمية والعملية. وساعده الحظ فوجد وظيفة كمساعد مختبر في معمل صغير للكيميائيات قرب سلبي. اعتقد الاصدقاء والاقرباء آنذاك انه يرتكب حماقة كبيرة في دفن مواهبه داخل مختبر معمل صغير، في حين انه كان قادراً على ايجاد وظيفة أفضل في شركة أكبر وأنجح. ولكن جايك كان بعيد النظر وطموحاً للغاية. فالعمل المتواصل والمثمر الذي جعله احدى الركائز الاساسية للشركة، وشخصاً لا يمكن الاستغناء عنه مطلقاً، وبتهذيبه الفائق وجاذبيته الساحرة مع زوجة صاحب المؤسسة، تمكّن جايك بعد فترة قصيرة نسبياً من الوصول الى ادارة الشركة ومن ثم الى ملكيتها.

نفض جايك رماد سيكاره في المنفضة المثبتة قربه، وعاد بذكرياته الى تلك الأيام السابقة. وشعر بشيء من الخجل بسبب الكيفية التي سيطر فيها على تلك الشركة، ولأنه لم يتردد آنذاك من الدوس على المؤسسة الصغيرة وتدميرها ليحصل على مقعد في مجلس ادارة لشركة اكبر. وتذكّر ايضا انه بعد تلك الخطوة الرئيسية في حياته العملية آنذاك، اصبحت الخطوات اللاحقة أنجح وأسهل... مع انها فقدت الى حد ما طعم الاكتفاء الذاتي ولذّة الوصول الى الهدف بالعرق والدم. منذ البداية تعوّد جايك هوارد على

استخدام عقله ودماغه بكل طاقاتها وقدراتها. ومع انه يملك في الوقت الحاضر مؤسسة كبرى وأكثر من مليون جنيه استرليني من الأسهم والسندات المالية، فهو لم يغرر بعد انتداب أحد كبار موظفيه لاستلام أي من مهامه أو مسؤولياته اليومية.

عندما كان يبحث قبل ثلاثة أعوام عن زوجة تلائمه وتليق به، التقى هيلين. كان محاطاً بالنساء طوال فترة صعوده الى القمة. موظفات، وعارضات أزياء، وحتى زوجات بعض زملائه وموظفيه. كنّ جميعاً يظهرن له استعداداً واضحاً للزواج منه. الكمية كانت متوفرة بكثرة... ولكن النوعية التي يبحث عنها كانت نادرة. جايك لن يقبل الا بالأفضل، كما في مجال آخر. ثم.... التقى هيلين فورسايت.

كان يعرف والدها جيرارد فورسايث منذ سنوات ويعتبره أحد الأوجه اللطيفة والمحببة في المجتمع اللندني الراقي، مع أنه كان يجده انساناً بطيئاً وشبه متخاذل. والده ادوين كان يحمل لقب سيد وقد أورثه مع الأسف لشقيق جيرارد الأكبر. ومع كل هذا، فان لجيرارد كل ما كان سيختاره جايك لنفسه لو سمحت له الظروف بذلك. فهناك العراقة والجاه والأصالة... والانتساب بدون عناء الى المجتمع المخملي. ولم يعر جايك أي اهتمام لموضوع تبديد جيرارد الأموال التي خلفها له والده. مع انه تخيّل اكثر من مرة الامكانات والمجالات الواسعة التي كان يمكنه هو استخدام تلك الأموال فيها، فيما لو كانت له عوضاً عن تبديدها وتبذيرها. ولكن افلاس جيرارد لم يغير اي شيء في وضعه الاجتماعي.

وعندما مات جيرارد بحادث سيارة بعد ليلة سيئة جداً من المراهنة والمقامرة، وجدت هيلين نفسها وحيدة شبه مفلسة وهي لم تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها. ولاحظ جايك انه كان بامكانها طبعاً ايجاد عمل تعيش من دخله. ولكنها حتى وفاة ابيها والفضيحة التي أثارتها تلك الحادثة ومسبباتها من ميسر وتبذير واستهتار، كانت هيلين على وشك الزواج من كيث ماتريتغ ابن المحامي المشهور جفري ماتريتغ، لا تهتم بشيء الا بنفسها ومتعتها. كانت هناك اسابيع تزلج في منتجع سان موريتز السويسري، وأسابيع سباحة في جزر الباهاما بالمحيط الاطلسي، وأسبوع صيد هنا وأسبوع تسوق هناك. اما احتمال تحوّلها، اضطراراً او طوعاً، الى

نمط حياة مختلف، فكان امراً لم يرد في تفكيرها على الاطلاق.

ولما توفي والدها وبدأ كيث يتهرّب منها بشكل مطوّل وملحوظ شعرت بالضيق المادي والنفسي الى ابعد الحدود. اذ لم يعد لديها سوى دخل بسيط ورثته عن جدتها لأمها. كانت هيلين جامعية مثقفة تتقن عدة لغات اجنبية وتتحدث فيها بطلاقة. الا انها لم تعمل شيئاً في حياتها باستثناء تنظيم حفلات عشاء او السهر على راحة الضيوف.

التقى فيها جايك صدفة في مسرح شافتسبري. كان وبعض اصدقائه يشربون كأساً أثناء الاستراحة عندما دخلت برفقة زوجين شابين، مدعوة من الزوجة التي كانت لفترة طويلة صديقة الدراسة. وبما ان الزوج لم يكن الا جايلز سانت جون وهو صديق حميم لجايك ويتعامل معه تجارياً، فقد كان من الطبيعي ان يعرّفهما على بعضهما.

كان جايك تلك الليلة بصحبة شابة برتغالية فاتنة. ولاحظ باعجاب مدى برودة أعصاب هيلين عندما حاولت فتاته التمسك به وافهامها بأنه لها، ولها وحدها. وأخذ يتخيل أن هذه الفتاة الانكليزية الشقراء ذات الجمال الهادىء، والجسد الطويل النحيل، والعينين الزرقاوين الحالمتين، يمكن أن تتصرف كزوجة لائقة.

لم يكن وضع هيلين غريباً عنه. فالجميع في مجتمعه ومحيطه يعرفون قصتها وأوضاعها. وعندما تطلّع فيها اكثر من مرة تلك الليلة، تصوّر انه شاهد في عينيها نظرات تشبه التحدي. ولم يكن جايك معتاداً على مثل تلك النظرات، فالنساء كنّ يجدنه عادة رجلاً له جاذبية ساحرة. ولكن هيلين كانت تنظر اليه وكأنه نوع من الحيوانات النادرة والبشعة التي أحضرت لها لتكتشف عليها وتعطي فيها رأيها.

اتصل بها في اليوم الثاني معرباً عن رغبته في مشاهدتها مرة اخرى. رفضت تلك الدعوات... ودعوات عائلة وجّهها خلال الاسابيع التي تلت اللقاء الأول. وفي احد الأيام اللاحقة عاود الاتصال، فشعر من نبرة صوتها بأن مشكلة ما قد حدثت. وقبلت دعوته لتناول العشاء، وعلم منها أثناء الحديث أن المنزل الذي تقيم فيه سوف يعرض للبيع. وشكّلت تلك المسألة عطلة عذاب جديدة في طريقها. فدخلها القليل لا يسمح لها بشراء أو حتى استئجار شقة لائقة. فماذا تفعل والى أين تذهب؟ عائلة فورسايت

نبذت والدها جيرارد بسبب تصرفاته الرعناء وأساليبه المتهورة واللامسؤولة. وبالتالي فانها ترفض حتى مجرد الاتصال بالعائلة طلباً للمساعدة. أصغى اليها جايك بكل انتباه وهي تحدثه عن مشاكلها، وقدّم اليها بعض النصائح، وأعرب لها عن تأثره وتعاطفه . . . واكتفى بذلك.

أخذ يتصل بها مرة كل يوم، طوال الأيام الأربعة عشر التي تلت لقاء العشاء. وكان يدعوها أحياناً للخروج معه، فيما كان يكتفي احياناً أخرى بمجرد السؤال عن صحتها وشعورها. ثم بدأ جايك يلاحظ تغييراً واضحاً في تصرفاتها وهو أنها بدأت تعتمد على تلك الاتصالات الهاتفية اليومية وتتوقعها. فتوقف عن الاتصال بها لمدة اسبوع. كانت المسألة بالنسبة اليه كصفقة تجارية تتطلب استراتيجية معينة، ومواقف تتراوح بين المد والجزر. ولم يكترث بأنه في هذه المرة يتعامل مع انسان وليس مع شركة أو مؤسسة.

عندما اتصل بها بعد انتهاء فترة المقاطعة كانت تعبة ويائسة. وكرجل الأعمال الذي يستغل مواقف الضعف عند الآخرين ليوجه ضربته، عرض عليها جايك الزواج . . . فقبلت. لم يكن يحبها، بل لم تكن تجذبه على الاطلاق. كانت باردة جداً وجامدة جداً لا تروق له ولطبيعته التي تعشق الدفء والحركة. ولكنها . . . كانت مثالية بالنسبة للمواصفات التي حدّدها لزوجة المستقبل.

أذهلتها طريقة عرضه وأثار استغرابها الاسلوب. فمع ان فكرة الزواج منه لم ترد في بالها، الا انها على ما يبدو لم تجد فيها سبباً للاعتراض التام والاحتجاج المتشدد. اما الاسلوب والطريقة فكانا مثار الدهشة. فقد أوضح لها بكل هدوء وبرودة أعصاب بأنه لا يريد زوجة الا بالاسم. يريدها جزءا من ممتلكاته . . . يزيّن بها طاولة الطعام الفخمة، وتهتم بضيوفه عند الحاجة، وتكون دليلا ممتعا على حسن ذوقه في اختيار النساء.

كان لعرضه وللأسلوب الذي قدّمه فيه تأثير واحد مؤكد. فقد تجمّد موقفها منه بعد ان كان الثلج قد بدأ بالذوبان، وعادت مرة أخرى تلك الفتاة الباردة وغير المهتمة التي تعرّف عليها في مقهى مسرح شافتسبري. ولكنها . . . قبلت، كما كان يتوقع. ولذلك بدأ يحتقرها ويزدريها. كانت نظرته اليها ستختلف كثيراً لو انها رفضته . . . لو انها اظهرت شيئا من عزة النفس وبدأت تعمل على تنظيم حياتها وشؤونها. ولكن بمجرد ان قبلت،

وبدون اعتراض، رأى فيها تلك المخلوقة التعيسة الضعيفة التي كانت على استعداد للقبول برجل من الواضح انها لا تحبه عوضاً عن ايجاد عمل تعيش منه بكرامة وعزة نفس.

صعقت والدته عندما أبلغها بعزمه على الزواج من هيلين. والده توفي اثناء تسلّقه سلّم الشهرة والنجاح، وأمه رفضت طلباته المتكررة للانتقال الى لندن والعيش معه، لأنها فضلت البقاء في المنزل الذي عاشت فيه سنوات عديدة من السعادة والحب مع زوجها. وعلى رغم الاختلافات الواضحة والعديدة في نظرتيهما الى الحياة والمبادىء والمثل، وفي وضعيهما المادي والاجتماعي، فان جايك ظل يعتبر أمه أفضل وأروع سيدة تعرّف اليها في حياته.

التقت هيلين والدة جايك أثناء حفلة الزفاف، التي كانت رائعة ومترفة والتي حضرها جميع أصدقائها السابقين. ولاحظ جايك انه كان يبدو عليها بوضوح انها تزوجته لتعود الى ذلك المجتمع الذي تعتبر فيه الممتلكات والأموال أهم وأفضل بكثير من قوة الشخصية والذكاء والتضحية. وكانت والدة جايك، كما توقع، كطائر خارج سربه. وكانت هيلين ايضا بالنسبة الى السيدة هوارد امرأة غير جديرة بابنها. ومع ان الوالدة لم تكن متملقة او معسولة اللسان، فقد أوضحت لابنها بصراحة جارحة ومؤلمة انه كان بامكانه اختيار زوجة أفضل بكثير من هيلين. وثارت قيمها ومثلها العليا احتجاجاً على ما يخطط له ابنها، لأنها أحسّت بأنه لا يشعر بأي محبة او اهتمام جدّي بهذه الانسانة الباردة التي لا تعرف من الحياة سوى القشور التافهة.

ومع ذلك، فقد نجح الاتفاق كما وضع أسسه جايك. وها هما بعد ثلاث سنوات يعيشان وفقاً لما اتفقا عليه. هو سعيد بملكيته الجميلة الجديدة. وهي سعيدة بحياة الترف والغنى واللامسؤولية التي تعوّدت عليها ولا تعرف غيرها. أعماله كانت تضطره للسفر كثيراً الى الخارج، وبالتالي فانهما لم يمضيا معاً سوى فترات قصيرة متقطعة لا تزيد في مجملها على ثلاثة أشهر. ولكن هيلين كانت دائماً جاهزة ومستعدة عندما يحتاجها لأي مناسبة اجتماعية كحضور حفلة او مسرحية، أو لاستضافة المتزوجين من الأصدقاء ورجال الأعمال وشخصيات المجتمع. ومع ان علاقتهما لم

تتعد حدود اللياقة والتهذيب المتبادلين بين الغرباء، فانهما يتصرفان مع بعضهما برقيّ وانسانية... وهو تصرف مفقود بين معظم معارفهما.

اكتشف جايك ان لهيلين ذوقاً رفيعاً جداً في التأثيث والديكور فاطلق يدها للقيام بما تراه مناسباً. وكانت عند حسن ظنه، فقد جعلت من ذلك المنزل الجميل في بلغرافيا متحفاً رائعاً ومحط أنظار الذوّاقة من شخصيات المجتمع. ولاحظ جايك بارتياح ان اصدقاءه يعتبرونه رجلا محظوظاً جداً لأن لديه زوجة تتمتع بهذا القدر من الذوق والحس الجمالي المرهف.

تنبّه جايك الى ان القطار بدأ يدخل محطة كينغز كروس، فهبّ واقفاً وارتدى سترته البنية الجميلة وتهيأ للخروج. كان رجلا ضخم الجثة، طويلا وعريض المنكبين، ولكنه يتحرك بخفة الفهود. ومع أنه لم يكن وسيماً فان الفتيات والنساء كن يجدنه جذابا الى أبعد الحدود. وكان ذكيا ويعرف أن ثروته الكبيرة تشكل أحد العوامل الرئيسية في تلك الجاذبية ونجاحها.

توقف القطار فحمل جايك حقيبته وغادر المقصورة باتجاه الباب الأمامي. كان سائقه الخاص لاتيمر ينتظره على رصيف المحطة. وبمجرد نزوله من القطار، حيّاه لاتيمر باحترام وتهذيب فائقين قائلا:

«اسعدت مساء يا سيدي. هل كانت رحلة جيدة؟».

«لا بأس، شكراً. كيف حالك أنت يا لاتيمر، وكيف زوجتك؟».

وكان الترحيب المعتاد والكلمات القليلة التي تتكرر هي نفسها تقريباً مع كل رحلة وكل عودة. دخل جايك السيارة الكبيرة الفخمة وجلس وراء المقود ينفث دخان سيكاره الفاخر وينتظر بعصبية انتهاء سائقه من توضيب الحقائب في صندوق السيارة. انه الآن في لندن ويتحرق للوصول الى بيته بعد أن غاب عنه أكثر من ثلاثة اشهر. صعد لاتيمر الى جانب ربّ عمله الذي انطلق بالسيارة بمجرد سماعه صوت اغلاق الباب. كان جايك يحب قيادة سيارته بنفسه وخاصة في أوقات فراغه. وفجأة تطلّع بسائقه وسأله:

«كيف حال السيدة هوارد يا لاتيمر؟ هل استلمت الزهور التي ارسلتها لها من غلاسكو؟».

تنحنح لاتيمر وقال مجيباً:

«نعم يا سيدي، وصلت الزهور. واعتقد ان السيدة بخير والحمدلله، مع انها أصيبت كغيرها عندما برد الطقس بزكام خفيف وسعال متقطع».

وراءها. وامسك بها بسهولة لانه لم يكن قد سبح فلم يكن متعباً. ثم خاطبها بلهجة مختلفة:

«هذا هو موطنك يا حبيبتي».

تأملته سماننا بحنو، فيما همست:

«انه الموطن الوحيد الذي عرفته».

«اني اقدر على فهمك».

«ولكن، حاول ان تفهمني يا بنيتو. كيف يمكن ان يكون شعورك اذا علمت فجأة ان امك لا زالت على قيد الحياة بعد ان تكون قد حسبتها ميتة منذ سنوات؟ لقد بلغت الحادية والعشرين من عمري، ولم اعرف بعد ماذا يعني ان تكون لي ام. ومن الطبيعي ان يعالبني الفضول لاراها، على الاقل لاعرف اي نوع من النساء هي حتى تمكنت من هجر ابنتها بهذا الشكل... فهي لم ترني منذ سبع عشرة سنة على الأقل».

ما ان خطرت لها هذه الفكرة حتى احست بغصة في حلقها. ثم تطلعت الى بنيتو الواقف بجانبها فوجدت فيه الحبيب. وتعجبت لماذا تسمح للرسالة بان تتدخل بينهما. لو انها لم تصل! عندئذ كان من السهل ان تتزوج بنيتو وتنجب له الاولاد. ولن يواجها التعقيدات في حياتهما، لانهما سيعيشان كما عاش والداه من قبله في بيروزيو.

همست وهي تتأبط ذراعه:

«لا تسرع يا حبيبي».

فتأملها قائلا برقة:

«حسناً. ساعطيك مزيداً من الوقت».

وصعدا الممر الصخري الى ان اصبح بوسعهما مشاهدة الفيلا الرابضة بوداعة تحت اشعة الشمس. لكنهما بغتا اذ شاهدا سيارة ليموسين تقف عند مدخل الفيلا.

التفتت سماننا الى بنيتو وقد رفعت حاجبيها الاسودين. فأجابها بهزة من رأسه.

وسألته:

«هل تدخل وتشرب القهوة؟».

ابتسم بنيتو ابتسامة خفيفة:

«شكراً والحمدلله. كيف حالك أنت يا سيدة لاتيمر؟».

انهى جملته وتطلّع حوله بتساؤل واستغراب. اجابته السيدة لاتيمر بهدوء ولكن وجهها كان منزعجاً بعض الشيء. انها امرأة مخلصة ولطيفة، بدأت تعمل في خدمته منذ عشر سنوات عندما أصبح ابنها الأصغر قادراً على الاعتناء بنفسه. زوجها يعمل مع السيد هوارد منذ ثلاثة عشر عاماً. وقد اصبحا بعد تلك السنوات الطويلة يعرفان مخدومهما حق المعرفة. ولذا، شعرت في تلك اللحظة انه سيسأل عن زوجته.

«أين السيدة هوارد؟».

ازداد انزعاجها فاحمرّ خدّاها وقالت:

«انها خارج المنزل يا سيدي».

ألا يعرف ذلك! ضبط أعصابه وحدّ من غضبه قليلاً ثم سألها بانفعال:

«أعرف أنها ليست هنا. ولكن، أين هي؟».

«لست متأكدة يا سيدي. لم تقل الى أين ذهبت. كل ما أعرفه أنها مع السيد ماتربنغ».

صعق جايك لسماع ذلك الاسم. كان يتوقع سماع أي اسم آخر ولكن...

«ماتربنغ؟ كيث ماتربنغ؟».

«اعتقد ذلك، يا سيدي. العشاء... جاهز، يا سيدي. من المؤكد انك جائع. هل تريد... أن...؟».

حلّ جايك ربطة عنقه بعصبية ظاهرة وسألها مقاطعاً:

«اخبريني، هل كانت زوجتي تعلم انني سأصل هذه الليلة؟».

«طبعاً يا سيدي. الزهور التي ارسلتها من غلاسكو وصلت مساء امس».

«حسناً».

عقد جايك جبينه وضاق اتساع عينيه غضباً، ثم قال:

«حسناً يا سيدة لاتيمر. سأستحم الآن، وأتناول عشائي بعد...».

وتطلّع الى ساعته الذهبية الكبيرة، ثم تابع جملته:

«... بعد عشرين دقيقة تقريباً».

صعد جايك الى غرفته بسرعة وكأنه يهرب من واقع مرير. وكان كلما

صعد درجة شعر بمزيد من الغضب والاستياء. تألم بشدة وكأنه طعن بالظهر. لماذا اختارت هيلين هذه الليلة بالذات لتخرج من البيت؟ بعد كل الرحلات السابقة كانت تنتظر وصوله وتستقبله بابتسامة رقيقة واستعداد لا يضاهى، للاصغاء اليه والاستماع الى تفاصيل صفقاته التجارية. وكانت تبدي تعاطفاً أو تقدم نصيحة كلما كان ذلك ضرورياً. اللعنة! أليست هذه مهمتها المتفق عليها؟ لقد اشتراها... نعم، اشتراها لهذا الغرض، لا لكي تمضي وقتاً ممتعاً مع ذلك اللعين كيث ماتربنغ!

خلع ثيابه ودخل الحمام. وظلت افكاره مشوشة ومشاعره مثالة غاضبة. كيف تجرؤ على الخروج وملاقاة رجل هجرها قبل ثلاث سنوات في حين أنه هو، جايك هوارد، التي انتشلها من مصيبتها... وتزوجها... وأغدق عليها الأموال بدون حساب! كيف تسمح لنفسها بلقاء ذلك الشاب اللعين في الوقت الذي يكون فيه زوجها خارج البلاد؟ ماذا سيقول الأصدقاء، وكيف سيفكرون؟

أنهى حمامه ولبس ثيابه وهمّ بالتوجه الى قاعة الطعام. ولكنه شعر فجأة برغبة قوية لدخول غرفة هيلين. فتح باب الغرفة وأخذ يتأملها بسخرية وألم. أثاث رائع الجمال، ألوان أخاذة، ذوق رفيع، وغنى فاحش. أغلق الباب بعنف قبل أن يقدم على أي عمل متهور، مثلاً رمي كل شيء في الخارج او احراق المفروشات والستائر والسجاد! كيف تجرؤ على الخروج من البيت ليلة عودته؟ ومع ماتربنغ بالذات! ألا تعرف مع من ترتكب مثل هذه الحماقة؟ هل تظن هذه الغبية السخيفة انه لن يعترض على قيام علاقات بين زوجته ورجال آخرين؟ لا، هذا لا يحدث أبداً مع جايك انتوني هوارد! فهو عندما يمتلك شيئاً يصبح ذلك الشيء كله ملكاً له وحده... دائماً... وطوال الوقت، وليس فقط عندما يختار اخراجه من علبته بين الحين والآخر ليمتع ناظريه به!

«العشاء جاهز يا سيدي».

«حسناً، حسناً. شكراً، يا سيدة لاتيمر».

جلس جايك الى مائدة الطعام وحاول جاهداً اظهار الاهتمام والرضى بنوعية الطعام وطريقة طهوه. وكادت مشاعره المتأججة ان تغريه باستجواب مديرة منزله حول نشاطات زوجته أثناء غيابه. كان يتحرق

لمعرفة كم مرة التقت فيها هيلين ذلك الوغد وما اذا كانت قد أحضرته الى البيت. آه من تلك الفكرة، كم هي شنيعة ومرعبة! كيث ماتريغ هنا، في بيته!

ولكنه لم يقل شيئاً ولم يسألها عن أي شيء، بل حاول التصرف وكأن غياب هيلين ليس مهماً. انهى العشاء الذي كان سيستمتع به كثيراً لو لم يكن بمثل تلك الحالة من الغضب والانزعاج. ثم شكر السيدة لاتيمر وأذن لها بالانسحاب وهو يتوجه حاملاً فنجان القهوة الى غرفة الجلوس. جلس وحيداً أمام التلفاز يشاهد استعراضاً غنائياً راقصاً، وهو أمر قلّما فعله في السابق. ففي الفترات القليلة التي يمضيها في لندن، تكون سهراته مفعمة بالحركة والنشاط، فاما ان يحضر حفلة أو مسرحية أو يقيم حفلة في بيته لأصدقائه وزملاء العمل. وفي المرات النادرة التي لا توجد فيها هذه النشاطات المعتادة، يحضر معه الى البيت بعض أوراقه ودفاتره ويعمل بهدوء وسكينة.

الا انه لم يكن بامكانه العمل في تلك الليلة. مزاجه لا يسمح له بالتركيز على تلك العقود التي ينوي العمل عليها بعد العشاء واطلاع هيلين على تفاصيل الرحلة. انه ينتظر عودتها على أحرّ من الجمر... ليواجهها ويصبّ جام غضبه عليها... ليفهمها بلهجة صريحة وواضحة ان عليها كزوجته واجبات معينة لا يمكن التساهل بشأنها مهما كانت علاقتهما سيئة وغير مرضية. لقد قبلت عرضه بالشروط التي حددها، وهو لن يسمح لها ابداً بأي تجاوزات أو تعديلات للاتفاق!

وفجأة تحول تفكيره بدون ارادة منه الى تلك الشابة التي التقى بها مرات عديدة خلال الأسابيع القليلة الماضية. ولاحظ بسرور بالغ أن لويز كورلي كانت بالتأكيد عاملاً رئيسياً في جعل اقامته أقل وحدة وأكثر متعة. وكان عزاؤه لضميره بأن الوضع مختلف. فهو رجل، أليس كذلك؟ ورجل له شهية الرجال! وخارج بلاده! يبعد آلاف الكيلومترات عن بيته واصدقائه. ومن أي شخص يمكن أن يثرثر عن تلك العلاقة! هيلين هنا، في لندن، حيث كل خطوة في تحركاتها تكون عرضة للتكهن والأقاويل من جانب الاصدقاء والأعداء على حد سواء.

مرّت ساعات المساء بطيئة متثاقلة، في حين كان غضبه يزداد حدّة ويكاد

يصل الى درجة الغليان. موسيقاه الكلاسيكية المفضلة لم تساعده كما في السابق على التخفيف من حدة توتره وانقباضه. وفجأة، سمع صوت الباب يفتح ثم يغلق. انها هيلين! وأحسّ برغبة في الخروج الى القاعة ومطالبتها بايضاح فوري قبل أن يبدأ بالصراخ والتحذير والتهديد. ولكنه قرر البقاء في مكانه، لأنها هي ستأتي اليه. وبعد لحظات دخلت هيلين جميلة وفاتنة بشكل خاص. آه، انها ترتدي ذلك الفستان الأزرق المطرز بالفضة الذي ابتاعه لها من اليابان قبل ستة أشهر، والذي لم تلبسه مرة واحدة قبل الآن. انه يريد تمزيقه لأنها لم تلبسه الا لتخرج مع كيث ماتريغ. يا للوقاحة وقلة الحياء!

«مرحبا يا جايك. انك تبدو في حالة جيدة. كيف كانت رحلتك؟».

سيطر جايك على اعصابه وأجابها بلهجة باردة:

«ناجحة الى حد كبير».

«أوه، هذا خبر جيّد».

اضطرت هيلين للتطلع فيه مرة اخرى، فشاهد القلق والانزعاج في عينيها وسمعها تقول متلعثمة:

«أنا... أنا آسفة لأني... لأني لم أكن هنا... عندما عدت الى البيت. كنت... كنت مرتبطة... بموعد».

«أعرف ذلك».

احمرّت وجنتاها وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت:

«من المؤكد ان السيدة لاتيمر اعدّت لك عشاء ممتازاً و...».

انفجر جايك غاضباً وقاطعها قائلاً:

«لتذهب السيدة لاتيمر وعشاؤها الممتاز الى الجحيم!».

مدّت هيلين ذراعيها الى الأمام متوسلة الهدوء والتفهّم:

«جايك، أرجوك...».

«أرجوك ماذا؟ اللعنة على هذا الرجاء! أين كنت يا امرأة؟».

بلعت هيلين ريقها بصعوبة وتراجعت خطوة الى الوراء وهي تقول:

«لقد اخبرتك السيدة لاتيمر بالتأكيد...».

«أنا لست مهتماً بالسيدة لاتيمر وبما قالته! أنا أريد أن أعرف منك أنت بالذات أين كنت ومع من؟».

لم تجد هيلين بدّاً من الاجابة، فقالت بصوت مرتجف:
«كنت في حفلة... مع كيث ماتربنغ».
صرخ جايك بصوت عال شاتماً:
«ايتها الكلبة الحقيرة، لا أدري كيف تكون لك الجرأة الكافية لكي تقفي أمامي هكذا وتقولي لي بمثل هذه البساطة أنك كنت مع رجل آخر، ومع ذلك الوغد بالذات، ماتربنغ!».
رفعت هيلين رأسها وأرغمت نفسها بصعوبة على التطلّع بعيني جايك وقالت له بقلة اكتراث:
«ولِمَ لا؟».
«لم لا؟ ماذا تعنين بهذا السؤال الوقح الأجوف؟ لمَ لا؟ انك زوجتي! أليس هذا جواباً كافياً؟».
كانت هيلين في تلك اللحظات تداعب خاتم الماس الذي يقدر ثمنه بعدّة آلاف من الجنيهات، والذي اهداها اياه جايك يوم اعلان خطوبتها. وكانت عيناها زائغتين وحائرتين، ومشاعرها متضاربة وأفكارها مشوشة. ثم سألته بهدوء:
«وأنت، هل يكفيك أنت أيضاً هذا الجواب، بأنك زوجي؟».
احتار جايك فسألها مستغرباً:
«وماذا تعنين بهذا السؤال الأرعن؟».
رفعت هيلين مرة اخرى حاجبيها متضايقة وقالت:
«كنت أظن أنه واضح جداً وليس بحاجة لشرح أو تفسير. هل تعتقد بأن ما من أحد من الأصدقاء سيتبرع بابلاغي أنباء مغامراتك وانتصاراتك الغرامية؟ وبأنني لن أشعر بالقرف والاشمئزاز عندما تتكرر هذه الاخبار باستمرار، ومن أفواه أشخاص يدّعون كذباً بأنهم مخلصون ومهتمون بمصلحتي؟».
«رباه، ماذا أسمع! وتعتقدين ان... ان تصرفاتي هذه تخوّلك التصرف على نحو مماثل. أهذا ما تحاولين قوله؟».
«لا».
قالتها بعصبية وانفعال شديدين لفتا نظره وجعلاه يستدير لمواجهتها مرة اخرى. أما هي فتابعت قذف حممها بانفعال:

«لا، يا سيد جايك! أنا لست مثلك! أنا لست حيواناً يطلق لشهواته العنان ويستسلم لمطالب جسده محاولاً تلبيتها كيفما كان، بغضّ النظر عن الزمان او المكان... أو الشريك».
«وتعتبرين أنني أنا... حيوان؟».
احمرّ وجهها وقد حلّ الغضب محل الخجل، والسخط محل اللباقة، والهجوم محل الدفاع وقالت له بلا اكتراث:
«والحقيقة يا جايك انه لم يعد يهمني من أنت. ولكني لا أرى أي مبرر لشكوكك من تصرفاتي. وفيما يتعلق بي شخصياً، فان هذه الأشهر الثلاثة الأخيرة كانت القشة التي تقصم ظهر البعير. اني لا أجد أي سبب لعزل نفسي عن أصدقائي لمجرد انني متزوجة منك، و...».
«هل أنا مضطر لتذكيرك بأن من تسميهم أصدقاء هجروك فور وقوع تلك الحادثة التي أودت بحياة والدك؟».
وجّهت اليه نظرة ثاقبة وقالت له بضيق وانفعال:
«هذه ملاحظة تافهة ورخيصة!».
هزّ جايك كتفيه العريضتين وهو يتأملها بتفحّص وتمعّن. كانت تلك المرة الاولى التي يراها عصبية المزاج وقادرة الى حد ما على الدفاع عن نفسها ومواجهته بقوة وثقة بالنفس. ثم قال لها بدون أن يبعد نظراته عن عينيها:
«ولكنها ملاحظة صحيحة، في أي حال! ماذا ستفعلين وبماذا ستعلّقين عليها؟ ماذا ستقولين ازاء هذه الملاحظات القاسية والجافة؟ اني انسان غير مهذب، انسان شبيه بذلك الوغد الوقح ماتربنغ؟».
«كيث رجل مهذب ويحسن التصرف».
«أوه، أهذا ما تعتقدين؟ وما هو تفسيرك لكلمة مهذب يا ترى؟ هل الرجل السيد المهذب هو الذي لا يأكل حبوب الزيتون قبل أن يقطعها بالسكين؟ أو الذي يذهب الى شاطىء البحر مرتدياً سترة سوداء رسمية؟».
«انك انسان فج ووقح! أنا ذاهبة الى النوم».
هجم نحوها بخفة وسرعة وقال لها بعصبية ظاهرة:
«هل انت ذاهبة حقاً؟ لا يا صغيرتي! لن تذهبي قبل أن أسمح لك لو أطلب منك ذلك».

رفعت رأسها ونظرت اليه وهي لا تصدق أذنيها:
«أنت مجنون يا جايك! نحن الآن في أواخر القرن العشرين... وأنت لست سجّاني! لا، لا يمكنك أن تفرض عليّ القيام بكل ما تريد، في أي وقت تريده».
ضمّ شفتيه بقوة وقال لها بسرعة وتهكّم غاضب:
«لا يمكنني، ها؟ لو كنت مكانك لما عوّلت كثيراً على هذا الشعور».
سارت هيلين نحو الباب ولكنها لاحظت أنه لن يحيد عن طريقها، فقالت له:
«جايك! هذا الحديث لا يعجبني على الاطلاق. وأتمنى لو أنه لم يبدأ ابداً».
ردّ عليها جايك بسرعة وحدّة:
«وأنا ايضاً! ولكن هل لي أن اذكّرك بأن غيابك عن البيت هذا المساء هو السبب؟».
وأنا متعبة جداً. هل بالامكان بحث هذا الموضوع غداً صباحاً؟ اعتقد ان حديث الصباح سيكون أفضل وأجدى لأننا سنكون... سنكون أقل انفعالا وأكثر عقلانية».
تطلّعت هيلين بطريقة لا شعورية الى الطاولة التي كان يجلس قربها. ولكنها ندمت على ذلك وقالت بسرعة:
«لا، هذا لا يعني شيئاً».
تضايق جايك من تلك النظرة العفوية وقد فهم مغزاها والتهمة الصامتة التي كانت تحملها، وقال:
«وهل تعتقدين أنني... أوه هيلين! هذا أمر لم يحدث من قبل، ولن...».
قاطعته بتهذيب وهدوء:
«ولا أريده أنا أن يحدث. والآن، هل تسمح لي بالذهاب الى الفراش؟».
ابتعد جايك عن الباب ولكن ملامحه القاسية والغاضبة لم تهدأ او تنفرج. ثم سألها قبل ان تتحرك من مكانها:
«ألست مهتمة بما احضرته لك من الولايات المتحدة؟ كنت دائماً أعتقد

ان هذا هو سبب زواجك مني... أن تحصلي على أكبر قدر من الفوائد المادية في هذه الحياة!».
نظرت اليه هيلين بقساوة وتقزز وشعرت بأنها على وشك توجيه صفعة مؤلمة ومخزية الى وجهه الساخر والحاقد ولكنها لم تفعل شيئاً سوى شد قبضتيها والتطلع اليه شزراً وهي تخرج بسرعة وانفعال نحو غرفتها.

٢- ضحكة نصفها حزين

أنهت هيلين تسريح شعرها ووضع قليل من المساحيق على وجهها، ثم جلست تنتظر جايك الذي كان بدوره يستعد لسهرة تلك الليلة. دعيا الى حفلة استقبال في احدى السفارات، وتلك اول امسية سيمضيانها معاً منذ عودته قبل أسبوع تقريباً.

الليالي الأربع السابقة أمضاها في العمل المتواصل. لم يتوجّه الى غرفته قبل مضي الجزء الأكبر من ساعات الليل. ومع أن هيلين كانت معتادة على ذلك طوال السنوات الثلاث الماضية، إلاّ أنها لاحظت أنّ الجو الذي ساد خلال الاسبوع الأول لعودته الأخيرة من الولايات المتحدة اتسم الى حدّ كبير بالتوتر والانفعال وكأنّ تحولاً جذرياً قد حدث في علاقتهما، او في تصرّف كلّ منهما مع الآخر.

قبل رحلته هذه كانا يتحدثان فترات طويلة، ولا بأس في أنّ معظم الحديث كان يتركز حول تجارته ومعامله وصفقاته المتعددة. ولكنّ العلاقة لم تكن أبداً متوترة على هذا النحو او الى هذا الحدّ. وتساءلت بانزعاج بالغ عمّا اذا كانت هي وحدها المسؤولة عن هذا التوتر، ام انّ اللوم يجب ان يقع على عاتقهما معاً!

نظرت الى المرآة الموجودة أمامها بحزن وتأثر. هل من المنطق والمعقول ان يتوقع منها جايك التخلي تماماً عن اشخاص تعرفهم منذ حداثة سنها، والاكتفاء بصداقات شكلية وسطحية مع اصدقائه وزوجاتهم. صحيح انّ لهما اصدقاء مشتركين، امثال جايلز سانت جون، ولكن هناك اشخاص تعتبرهم هي مقبولين تماماً في حين يجدهم جايك تافهين ومحتقرين وغير

جديرين بصداقة او حتى بمعرفة او لقاء.

كيث مانريغ هو واحد من هؤلاء الاشخاص. انها تعرف كيث منذ سنوات عدّة، وكانت في احدى الفترات تتوقع الزواج منه. الاّ ان هذه المشاعر بالذات اصبحت ملكاً للماضي وذكرياته، ولم يعد يجمع بينهما سوى الصداقة. وفعلاً، فأي محاولة من جانب جايك لاتهامها بغير ذلك، او للايحاء بأن ثمة علاقة غير الصداقة العادية البريئة، هي محاولة رخيصة وحقيرة. تناولت قلم التجميل وأجرت تعديلاً بسيطاً فوق عينها اليمنى. ثم عادت الى التفكير واحلام اليقظة... والتساؤل. كم من مرّة في الاعوام الثلاثة الماضية، عانت من التعليقات الجارحة والملاحظات اللاذعة التي كانت تتحفها بها احدى النساء اللواتي يدّعين الاهتمام والصداقة والحرص على المصالح الزوجية! تلك الملاحظات التي تدور في مجملها حول علاقات جايك الغرامية، وهذه التي شوهد معها بانتظام او تلك التي كان يجاملها ويغازلها ورعا...! وتذكرت هيلين انها في بادىء الأمر كانت تشعر بالصدمة والحزن... وحتى بالاذلال. ولكنها اعتادت بعد ذلك على التأقلم مع الواقع المر، لا بل أرغمت نفسها على تقبّل ذلك الواقع لأنه لم يكن بامكانها الحؤول دونه او القيام بأي شيء لمنعه او الحدّ منه. جايك رجل شيق، يتصرّف مع النساء كما تفعل النحلة مع الأزهار. وهناك الكثير من النساء اللواتي هنّ على أتم الاستعداد لتلبية حاجاته ومتطلباته. وهيلين تعرف أنّ اياً منهن لا تعني شيئاً بالنسبة الى جايك. فبمجرّد ان تبدأ احداهن بوضع شروط او التقدّم بمطالب، يطردها من حياته وأفكاره بسرعة وبدون تردد. انه من اولئك الرجال القساة الذين لا يعيرون اي اهتمام لمشاعر النساء او عواطفهن. ابتسمت هيلين بسخرية عندما لاحظت انها في بعض الاحيان تأسف لهؤلاء الضحايا.

وقفت وتأمّلت صورتها الكاملة في المرآة الضخمة أمامها. انها بلا شك امرأة جميلة، ولا داعيَ للتواضع او الخجل. ولو لم تكن جميلة لما اصبحت زوجة جايك هوارد. كل ما يحصل عليه او يملكه يجب ان يكون الأفضل. ولكن معرفتها لهذه النقطة الحساسة، لم تسعدها او تمنحها اي شعور بالرضى والسرور. فهي السجينة وهو السجان... هي عصفور جميل رائع يضعه جايك في قفص ذهبي ليسمع صوته عندما يريد، ويتمتع به نظره

عندما يشاء. سمعت طرقاً خفيفاً على الباب فردّت بسرعة وبنبرة حادة عفوية بدون ان تلتفت الى الوراء:

«ادخل!».

فتح جايك الباب ولكنه لم يدخل. كان جذاباً في ثياب السهرة الرسمية، ومع ذلك فقد ظهر لها من زاوية معينة بدائياً للغاية. ربما كانت طريقة سيره وتحركه، او ربما كانت تلك النظرات المتحجرة القاسية في عينيه السوداوين الساخرتين. كان يبدو واثقاً من نفسه الى حدّ كبير، وشعرت هيلين بانه يتوقّع سهرة رائعة واستمتاعاً بالغاً في تلك الامسية. السهرة بالنسبة اليه كانت نوعاً من التحدي... مناسبة لاستخدام مواهبه وشخصيته القوية للتأثير على عدد كبير من الموجودين، وخاصة النافذين منهم. انه بلا شك ينظر الى هذه الحفلة كخطوة هامة نحو حصول مؤسسة هوارد على موطىء قدم في تلك الدولة وفي جاراتها الأربع ايضاً. حماس هذا الرجل واندفاعه كانا، ولا يزالان، وراء نجاحه في اقامة تلك المؤسسة العملاقة. ومهما بلغت قوته وثروته وضخامة مؤسساته، فانه سيظل محافظاً على ذلك الطموح الجارف والشخصية الفذة.

شعرت هيلين بثورة عارمة في داخلها، عندما وصل شريط أفكارها الى هذه النقطة الأخيرة بالذات. وتساءلت في تلك الأونة، كما كانت تفعل دائماً منذ الاسبوع الأول لزواجهما، عن الحكمة في قبولها الزواج منه. ولماذا قبلت بهذا المنصب الذي تحسدها عليه مئات الشابات والسيدات، مع انه منصب مزعج وبارد ومؤلم؟ لماذا اكتفت بالاّ تكون سوى... زوجة جايك هوارد! قساوته، عنجهيته، طبيعته المادية، سحره السريع التأثير، جاذبيته الفتاكة، ثقته التامة بنفسه وقدراته... كلها خصائص تضايقها وترفضها في شريك العمر. ولكنها دأبت على اقناع نفسها دوماً بان عليها تقبّل الواقع... على مرارته. والحياة الزوجية مع جايك... على صعوبتها، لن تسمح له ابداً بالدخول الى قلبها او عواطفها، لان من شأن ذلك القضاء على البقية الباقية من اعصابها ومشاعرها... وحتى من كرامتها..

اغمضت عينيها لحظة فسمعته يقول بلهجة توحي بالود والاهتمام:

«انك... جميلة! ولكني متأكد من انك تعرفين ذلك، ولست بحاجة لسماعها من الآخرين».

«انه لمن دواعي السرور دائماً ان يحصل الانسان على تأكيدات من الآخرين لما يعرفه او يشعر به».

هزّ جايك رأسه بشيء من التهكم، ثم اخرج علبة من جيبه قائلاً:

«هذه هدية لك».

مشى نحوها ثم سألها وهو يفتح غطاء العلبة امام عينيها:

«هل يعجبك؟».

وكيف لا! قالتها لنفسها وهي تتأمل ذلك العقد الرائع الجمال والمتقن الصنع... والباهظ الثمن. ولكنها احتفظت برباطة جأشها وضبطت اعصابها، وقالت له بهدوء وبابتسامة خفيفة:

«شكراً! هل تسمح بوضعه حول عنقي؟».

«طبعاً».

رمى جايك العلبة على السرير ووضع العقد حول عنقها بخفة ومهارة، قائلاً ببرودة مماثلة:

«انه جميل عليك. واظنه يناسبك، وخاصة مع ما ترتدينه الليلة».

استدارت هيلين نحوه لأول مرة منذ دخوله غرفتها وقالت له بلهجة اكثر من عادية وتنم عن عدم اكتراث الى حدّ ما:

«نعم. انه رائع».

تأملها جايك بتفحص وكأنه يحاول بنظراته الثاقبة معرفة ردّ فعلها الحقيقي على هديته لها وبادرته نحوها. ثم هزّ كتفيه وكأنه هو الآخر غير مهتم او مكترث بتحاشيها اللامبالي، وقال:

«اشتريته لك من نيويورك، ظناً مني انه سيعجبك».

«انه يعجبني».

حملت حقيبة اليد المخملية ثم نظرت اليه وسألته بهدوء:

«هل انت مستعد للخروج؟».

رفع جايك معطفها الأنيق الذي كان ملقى على حافة السرير وساعدها على ارتدائه وهو يجيب:

«نعم، انا مستعد. لاتيمر يحضر السيارة الآن. هل نذهب، ام انك تريدين شيئاً آخر؟».

لم تجب، بل سارت نحو الباب بدون ان تلتفت نحوه او وراءها. وكان

لاتيمر ينتظرهما بصبر وهدوء قرب الباب الرئيسي. جايك يحب قيادة السيارات ولكنه يفضل الجلوس في المقعد الخلفي عندما تكون هناك حفلات رسمية او لقاءات عمل او اجتماعات ضرورية. اوقف لاتيمر السيارة امام مدخل السفارة وخرج منها مسرعاً ليفتح الباب للسيدة في حين تولّى احد موظفي الاستقبال فتح الباب الآخر. وبما انه لم يكن هناك اي مكان شاغر لايقاف السيارة في ذلك الشارع، طلب جايك من سائقه ان يذهب الى البيت على ان يعود اليهما في وقت لاحق.

بعد صعودهما الدرج الرخامي العريض ووصولهما الى المدخل المؤدي الى قاعة الاستقبال، استأذنت هيلين زوجها وتبعت احدى المضيفات الى غرفة جانبية مخصصة للسيدات لكي تضع معطفها مع بقية المعاطف وتتأكد من حسن منظرها قبل الدخول الى القاعة الرئيسية. كانت الغرفة تعج بزوجات الديلوماسيين والسياسيين وشخصيات المجتمع. علّقت هيلين معطفها، والقت نظرة سريعة على نفسها في احدى المرايا ثم خرجت لملاقاة زوجها والدخول معه الى الصالة الكبرى. كان جايك بانتظارها ولكنه لم يكن وحده. كان يقف معه رجل متوسط العمر يتكلم بحماس وحيوية، فيما كان جايلز سانت جون وزوجته جنيفر يصغيان باهتمام بالغ. لوحت جنيفر بيدها عندما شاهدت هيلين، وتقدمت نحوها بلهفة قائلة وهي تقبلها:

«هيلين، عزيزتي! لقد مضى دهر على آخر لقاء بيننا. اين انت، وماذا كنت تفعلين طوال هذه المدة الطويلة؟».

حوّل جايك نظره بسرعة الى وجه زوجته الذي احمرّ قليلاً. وشعرت هيلين فوراً بتلك النظرة الحادة وبتأثيرها القوي عليها. جايك قادر تماماً على التظاهر بتوجيه كافة اهتمامه الى مسألة ما في حين انه فعلاً يكون مصغياً الى موضوع آخر يختلف تمام الاختلاف من حيث الشكل والمضمون. وأحست بأنه يركز اهتمامه الآن على الجواب الذي ستعطيه. ومن المحتمل انه يتوقع منها ابلاغ جنيفر بعلاقاتها كيث ماترينغ.

ابتسمت هيلين واجابتها بلهجتها الواثقة المعتادة:

«توقعتك ان تكوني منشغلة هذه الأيام. أنا من ناحيتي كنت منهمكة في اجراء عدة ترتيبات وتعديلات جديدة في البيت. ثم، انك تعرفين كيف ان

جايك عاد بعد فترة غياب طويلة و...».

لم تكمل جملتها عمداً، بل عمدت الى توجيه نظرة باسمة تحمل اكثر من معنى الى جايلز الذي كان يمد يده لمصافحتها.

«انك تبدين رائعة بشكل خاص هذه الليلة أيتها العزيزة!».

قالها جايلز لهيلين وهو يشدّ على يدها ويردّ على الابتسامة بالمثل. ثم مدّ يده اليسرى الى العقد الثمين، في حين ابقى يده اليمنى ممسكة بيد هيلين، وقال:

«هذا عقد رخيص ومقلّد، وانا متأكد من انه ليس من وولورثز».

كان جايك قد انهى حديثه مع السياسي المتوسط العمر وحوّل اهتمامه الكلي لما يجري قربه. ثم وجّه نظرة طويلة الى جنيفر وقال لجايلز بدون ان يرفع نظره عن زوجة صديقه:

«وهل انت حقاً مقتنع بما تقول؟».

ثم تطلّع بزوجته وسارع الى القول، ولكن بلهجة جافة وقاسية:

«لماذا لا تزيد الجمال جمالاً والتحفة روعة وكمالاً؟!».

ازداد احمرار وجه هيلين وشعورها بالضيق والانزعاج، وقالت:

«اعتقد انّ هذه المحادثة سخيفة جداً. أليس كذلك يا جنيفر؟».

وقبل ان يتمكن احد من الردّ او التعليق على ما قالته، سارعت الى توجيه سؤال عن موضوع مختلف تماماً:

«اوه، جايلز! هل وجدت شيئاً جديداً بالنسبة الى تلك القارورة؟».

جايلز سانت جون لم يكن فقط رجل اعمال وعضو مجلس ادارة في عديد من الشركات، بل كان ايضاً يهوى الاشياء القديمة التي تحمل قيمة تاريخية وأثرية ويمضي الساعات الطوال في اجراء دراسات وبحوث عنها. وكانت هيلين قد اعطته قارورة فضية صغيرة ليتأكد لها من صحة ما يقال عن انها صنعت خصيصاً لليدي هاملتون. والقارورة الفريدة هدية لهيلين من جايك في عيد ميلادها الماضي.

أخذ جايلز يشرح مراحل التحقيقات التي يقوم بها فيما كانوا جميعاً يتوجهون الى قاعة الاستقبال. كانت هيلين تستمع الى الشرح المستفيض وتصغي في الوقت ذاته لتفاصيل حادثة طريفة جرت لجايك اثناء وجوده في اميركا ولضحكات جنيفر المتواصلة. ازعجها الغنج والدلال ولم تعد تسمع

محاضرة جايلز او نكتة جايك. عاد بها تفكيرها الى المناسبات النادرة التي كان الحزن العميق وحده يضطرها للتذمر لصديقتها جنيفر من تصرفات جايك، وكيف انّ جنيفر كانت دائماً تأخذ جانبها وتتهم جايك بالحقارة والخسّة. وتذكرت ايضاً انه في كل مرّة يجتمع فيها الاصدقاء الأربعة، تنسى جنيفر اتهاماتها وتتصرّف مع جايك وكأنها تجده جذاباً وساحراً للغاية. وللمرة الاولى منذ بدأت جنيفر تتصرّف على هذا النحو، شعرت هيلين بضيق وانزعاج شديدين. وفجأة تطلعت الى الوراء فلاحظ جايك الانقباض الظاهر في وجهها و. . . في تلك اللحظة بالذات زلّت قدم جنيفر، فامسكت بذراع جايك محوّلة انتباهه عن زوجته. هل تعمدت تلك الحادثة البسيطة، ام انها وقعت قضاء وقدراً! ازداد تأثر هيلين وشعرت بألم حاد في معدتها. جايك لم يبحث معها تفاصيل رحلته الأخيرة. . . لم يبحث معها اي شيء منذ اسبوع. الحقيقة انهما لم يتبادلا سوى بعض كلمات عادية وتقليدية. فلماذا تغضب الآن ان هو اخبر جنيفر بعض ما حدث معه في تلك الرحلة؟ لا، لن تغضب. تطلعت بجايلز وابتسمت. لم يلاحظ هو اي شيء غريب يزعجه، فلماذا تزعج هي نفسها او تتضايق!

قاعة الاستقبال الكبرى والغرفتان المتصلتان بها كانت تعج بالشخصيات الرسمية والاجتماعية. استقبلهم احد مساعدي السفير بتهذيب واحترام وتولّى التعريف بينهم وبين عدد كبير من الرسميين والمسؤولين، ثم تركهم يتحدثون مع بعض الضيوف الآخرين فيما توجه هو لاستقبال القادمين الجدد. نظرت هيلين الى زوجها فشاهدت في عينيه نظرات النمر الذي يستعد للانقضاض على فريسته. وعلمت انّ تفكيره كلّه مركز الآن على مواضيع العمل والصفقات التجارية والمالية. وفعلاً اعتذر جايك منهم بدعوة انه سيتحدث الى احد السياسيين القدامى الذين يعرفهم. ثم اختفى في ذلك الحشد الكبير قبل ان يتسنى لأحدهم التلفظ بشيء. تطلعت جنيفر بصديقتها وكأنها ترثي لحالها وقالت:

«اعتقد انّنا لن نرى زوجك قبل ساعة او ساعتين من الآن. انه حقاً لا يطاق. الا تعتقدين ذلك؟».

احنت هيلين رأسها وردّت بهدوء:

«بلى، اعتقد ذلك».

ابتسم جايلز ووضع ذراعاً على كتف كل منها قائلاً:

«خيراً فعل. الم يتركني مع اروع سيدتين في هذه القاعة».

ابتسمت هيلين ولكن جنيفر هزّت كتفيها ضجراً وقالت:

«ولكن، ايها الحبيب الغالي، ماذا سنفعل الآن؟ اعني. . . الا تعرف احداً جديراً بالاهتمام ضمن هذا الحشد الكبير؟».

عقد جايلز جبينه وتطلّع حوله باهتمام جدي، ثم قال:

«ها! اعرف الرئيس لباري الذي يقف هناك مع زوجته. كان زميلاً لي في جامعة كمبريدج. وزوجته شابة طيبة جداً وهي كانت ممرضة على ما اذكر».

ظلّت جنيفر لبعض الوقت متأففة تشعر بالضجر والملل، ثم سألت زوجها فجأة:

«من هو ذلك الرجل الذي يحدّق بنا؟ ذلك الرجل المتوسط العمر الذي يقف هناك؟ هل تعرفه؟».

«أوه، تعنين برتي مالارد. نعم اعرفه».

ثم تابع حديثه بعد ان ردّ التحية لذلك الرجل:

«انه في الحقيقة اللورد مالارد! انا متأكد من انني ذكرت اسمه عدّة مرات امامك يا جنيفر. انه خبير ممتاز في المفروشات القديمة».

«بحق السماء، جايلز! اين الاثارة والاهتمام! رئيس لاحدى الجمهوريات الصغيرة الفقيرة وزوجته الممرضة السابقة او احد اللوردات المتخصصين بالمفروشات العتيقة البالية! الا يحضر مثل هذه الحفلات اشخاص يفتحون الشهية؟ اشخاص في الثلاثين او العشرين، ويحبون الحياة؟».

«طبعاً، طبعاً. لنتنقل بين هؤلاء الناس علّنا نجد مبتغانا!».

اضطرت هيلين لمجاراتها في التنقل والمشاركة في الحديث. ولكنها كانت متضايقة وتشعر بالانقباض. جنيفر على حق! جايك لا يطاق! لماذا يحضرها الى مثل هذه الحفلات عندما يكون مصمماً على تركها وحدها طوال الوقت؟ مضت ساعة كاملة لم تلمح جايك خلالها ولو مرّة واحدة. وفجأة شعرت بيد رجل تداعب ذراعها. استدارت بسرعة ليواجهها كيث ماتربنغ بابتسامة ودية.

«كيث؟ ماذا... ماذا تفعل هنا؟».

جايلز وجنيفر استدارا ايضاً عندما سمعا صوتها وتلعثمها. جايلز يعرف كيث معرفة وثيقة، ولذا حيّا كل منهما الآخر بحرارة. اما جنيفر فقد وجهت اليه ابتسامة عريضة قائلة له بلهجتها المعتادة.

«كيث، ايها العزيز الغالي! ما اروع هذا اللقاء! انا متأكدة من انّ هيلين ايضاً مسرورة جداً بلقائك. زوجها هجرها منذ بداية هذه الحفلة... وكلنا نشعر بالضجر والسأم».

نظرت اليها هيلين بغضب واشمئزاز. ان آخر شيء تريده في العالم هو ان تتكوّن لكيث فكرة خاطئة عمّا تشعر به نحوه. صحيح انه يعجبها وانهما صديقان، ولكن هذا هو كل ما في الأمر. كيث شاب في مقتبل العمر وصاحب شخصية محببة، وخاصة مع الفتيات. هيلين تعرف ذلك، ولكن علاقتهما اقتصرت حتى الآن على الصداقة البريئة. وهي تريدها ان تظل هكذا... صداقة تحتفظ بها بدون ان تتطور او ان تنقلب عداوة. ولكنها سمعته يقول لجنيفر:

«جئت خصيصاً للقاء هيلين».

نظرت اليه بتعجب فشاهدته يبتسم ويوجه حديثه اليها قائلاً:

«تمكنت من الحصول على بطاقتين للحفلة الموسيقية التي سيقيمها ماهلر والتي كنت ترغبين في حضورها. فما رأيك؟».

يا للمصيبة! احمرّ وجهها وقالت بتردد واضح:

«اوه! اوه، الحفلة! لا ادري... لا اعلم! اعني اننا عندما تحدّثنا بشأن هذه الحفلة كان جايك... لا يزال مسافراً. اما الآن... فهو هنا».

كانت جنيفر تصغي بتأفف لاعتذار هيلين. ثم قالت لها بشيء من الدهشة والاستغراب:

«بربّك يا هيلين! هل تعتقدين ان جايك سيأخذك بعين الاعتبار اذا كان يرغب في الذهاب الى مكان ما او مرافقة انسان ما؟ انه ليس سجانك! قفي على قدميك بثبات واتخذي موقفاً صارماً! كوني مستقلة!».

عضّت هيلين بقوة على شفتها حتى كادت تدميها. انها تعلم انّ جنيفر على حق، وتلك الليلة بالذات هي خير دليل على عدم اكتراثه بها. تركها منذ بداية السهرة وحيدة... برعاية جايلز.

«لا اعلم يا كيث...!».

توقفت عن متابعة جملتها وجمدت في مكانها عندما شاهدت زوجها يقترب منهم، وفي عينيه نظرات الرضى والاكتفاء كتلك التي تظهر في عيني هرة انتهت لتوها من تناول طعامها المفضل. ولكن تلك النظرات قست وتحولت الى الغضب عندما شاهد كيث يقف قرب زوجته.

وضع يده على كتف زوجته وشد بقوة وهو يقول بلهجة من يأخذ الأمور بروح رياضية وعدم اكتراث:

«يا للصدفة! انه كيث، أليس كذلك؟ قل لي، ماذا يفعل محام نظيف اليد مثلك في مكان كهذا؟».

كان التحقير واضحاً في تلك اللهجة مع انّ الكلام بحدّ ذاته لم تكن فيه اهانة او شتيمة. ومع أنّ كيث لم يكن طويلاً او عريض المنكبين كجايك، الا انه اعجب هيلين عندما شمخ برأسه وقال بهدوء ملحوظ:

«الحقيقة يا هوارد انني جئت للقاء زوجتك. لدي بطاقتان لحفلة موسيقية اعرف انها متشوقة لحضورها».

حولت هيلين نظرها عن وجه الشاب الذي صبغه احمرار الانزعاج والانفعال الى وجه جايك الهادئ، والقاسي. وكان واضحاً من زيادة شدّ قبضته على كتفها أنه فوجيء بالتفسير الفوري والصريح الذي صدر عن كيث. الّا انّ جايك لا يسمح لمثل هذه المواقف بان تؤثّر على تفكيره او تصرفاته.

«هكذا اذن!».

اخذ سيكارة قدمها له جايلز في ذلك الوقت بالذات على امل التخفيف من حدّة المواجهة المتوقعة بين الرجلين. وببرودة اعصاب مزعجة تطلّع بكيث وسأله:

«وما يحملك على الاعتقاد بأني لن اتولى هذه المهمة بنفسي ان كانت زوجتي فعلاً راغبة في حضور الحفلة المذكورة؟».

تردّد كيث، ربما لأنه انتظر جواباً آخر او سؤالاً مختلفاً. ثم قال:

«فهمت من هيلين انّ الحفلات الموسيقية الكلاسيكية تزعجك وتضجرك».

«أهذا حقاً ما قالته لك زوجتي؟».

وضع السيكارة بين شفتيه بهدوء غريب، فسارع جايلز لاشعالها له. وبعد ان نفث سحابة كبيرة من الدخان على مقربة من وجه كيث، عاد الى الكلام:

«يجب ان تخبرني عن الأمور الاخرى التي تحدثك بها زوجتي يا كيث. انا مهتم جداً لسماع تقييمها الفذّ لأنواع الموسيقى التي. . .».

قاطعته هيلين بانفعال وتوسل:

«جايك، ارجوك! ارجوك!».

ردّ عليها بهدوء مفتعل:

«أرجوك، ماذا؟».

«أرجوك ألاّ تفتعل شجاراً! لقد ابلغت كيث قبل قدومك انه. . . انه لا يمكنني قبول دعوته».

«آه، هكذا اذن! ولكن لماذا؟ هل منعتك من قبول دعوة كهذه؟».

«لا! لا!».

تطلّعت هيلين حولها بانزعاج بالغ وقالت:

«جايك، انا لا اريد الذهاب».

«ولكنني أصرّ على ذهابك. اذ ليس من المعقول ان ترفضي بعد ان تعذّب كيث الى هذا الحد للحصول على البطاقتين! بالمناسبة، ما هو موعد الحفلة؟».

اخرج كيث البطاقتين من جيبه بانفعال ثم أجاب:

«يوم الخميس المقبل! في الثالث والعشرين من هذا الشهر».

«الثالث والعشرون، ها! اوه، تذكرت الآن. هناك مؤتمر سيعقد في باريس في الرابع والعشرين، ولذلك فعلى الأرجح ان اكون غائباً ليلة الخميس. انا متأكد من انّ هيلين ستكون مسرورة بمرافقتك لها الى الحفلة المشهورة».

نظرت اليه هيلين بغضب، وشعرت بكره شديد نحوه لانه ينظّم لها حياتها بمثل هذه اللامبالاة الكريهة. لماذا يصرّ الآن على قبولها الدعوة بينما رفضها بعنف وقساوة يوم عودته الأخيرة الى لندن؟ هذا التناقض الكبير أوقعها في حيرة مزعجة.

تنهّدت جنيفر وشعر جايلز بشيء من الراحة والسكينة بسبب النتيجة

السلبية للمواجهة. ولتثبيت الهدوء، اقترح جايلز ان يتوجهوا جميعاً الى موائد المأكولات العامرة. اما كيث فقد اغتنم الفرصة ليستأذن بالذهاب بعد ان قال لهيلين بأنه سيتصل بها لاحقاً. على اثر ذلك، خيّم صمت مزعج على الرجلين وزوجتيهما. وكانت هيلين بالطبع اكثرهم انزعاجاً وتضايقاً، فلم تتمكّن من تناول لقمة واحدة من تلك المأكولات الشهية المنوعة. كيف لا يكون الجو متوتراً الى هذه الدرجة وجايك لا يقول شيئاً ولا يجيب الاّ بنعم او لا، عندما يحاول جايلز او جنيفر التحدث معه. ولم يحدث اي انفراج، على رغم المحاولات المتكررة من جانب الصديقين المشتركين، الا عندما تقدم منهم السفير بنفسه مرحباً ومجاملاً. عندها فقط انفرجت اسارير جايك واطلق للسانه العنان. ولكنه كان دائماً لطيفاً ومهذباً وطيّب المعشر عندما يتحدّث في مواضيع تتعلّق بمشاريعه او صفقاته.

بمجرد انتقال السفير الى مجموعة اخرى من الضيوف، اعلن جايك عن رغبته في العودة الى البيت على الرغم من انّ الحفلة كانت لا تزال في اوجها. عادا بسيارة اجرة لأنه لم يشأ البقاء حتى الموعد الذي حدّده لسائقه. وكانت هيلين متخوّفة طوال الوقت مما سيقدم عليه جايك. ماذا سيقول؟ ماذا سيفعل؟

أبلغ جايك سائقه انه لم يعد بحاجة اليه تلك الليلة، في حين توجهت هيلين بعصبية الى قاعة الجلوس. وعادت التساؤلات المزعجة تضج في رأسها. ماذا كان هدفه عندما دفعها دفعاً، لا بل ارغمها على قبول دعوة كيث؟ ما هي الأسباب الحقيقية لهذا التحوّل المفاجيء في تصرفاته. لا، لن تدع غضبها يسيطر على تفكيرها! سترغم نفسها على معالجة الأمور بهدوء وروية! لا داعي لشعورها بالذنب، فهي لم ترتكب خطأ او تقدم على عمل تخجل به!

أعدّت لنفسها فنجاناً من القهوة المرّة وجلست ترشفه بهدوء بعد ان خلعت معطفها ورمته على المقعد المجاور. دخل جايك فسألته عما اذا كان يرغب في فنجان مماثل ولكنه رفض بحركة من يده. لم يزعج نفسه بالرد عليها او حتى بالنظر اليها وكأنها غير موجودة. هل تعود الى الانفعال ام تحتفظ برباطة جأشها!

ولكن المشكلة أنّ جايك ليس غبياً، وهي تعرف ذلك. وتعرف ايضاً

اسلوبه القاسي في اخراس موظفيه والحط من شأنهم وقدرهم. الشخص الوحيد الذي له اي تأثير يذكر على جايك يقيم في سلبي، على بعد بضعة مئات من الكيلومترات. وهيلين لم تكن راغبة ابداً في طلب المساعدة من والدة زوجها لأنها تعرف مدى احتقار تلك السيدة العجوز لها ولطريقة حياتها.

وضعت فنجان القهوة على الطاولة الصغيرة وبدأت تسير نحو غرفتها وهي تأمل في ان يكون صمته علامة غضبه الوحيدة. ولكنه اقترب منها مسرعاً وقال بلهجة جافة وقاسية:

«والى اين تظنين انك ذاهبة؟».

«اني متعبة يا جايك! اريد التوجه الى الفراش».

ردّ عليها بنبرة حادّة وكأنه يتهمها بشيء خطير:

«انك دائماً متعبة... وخصوصاً عندما تضطرين لمواجهة امور غير سارة او مستحبة!».

تنهّدت هيلين وردّت عليه بروية وعناية:

«انا لا ارى ايّ داعٍ لتفوّهك بكلام غير مستحب. اني لم افعل شيئاً اخجل به. أنا لست طفلة يا جايك، تؤنّب وتقاصص بعد كل مرة تخرج فيها من البيت. واذا كنت متضايقاً عمّا حصل مع كيث، فما عليك الا ان تلوم نفسك».

«ألوم نفسي؟ رباه، هيلين ماذا تقولين؟ انك حقاً وقحة هل تظنين انني سأقبل هذه الوقاحة منك؟».

«جايك! الا تعتقد انك امعنت في اذلالي بما فيه الكفاية في امسية واحدة؟ بربك قل لي، ماذا سيقول جايلز وجنيفر بعد كلّ الذي شاهداه هذه الليلة؟».

رفع حاجبيه غضباً وقال لها بتهكم حاقد وشامت:

«الا تدرين؟ هذا يعني انك لا تعرفين اصدقاءك حق المعرفة، أليس كذلك؟

قالت لا تتطلعين الا الى القشور! انك سطحية سخيفة لا تعرفين دوافع هؤلاء الاصدقاء او مشاعرهم الحقيقية!».

جرحتها اهانته وكلماته القاسية الفظّة فسألته بتأثر واضح:

«وماذا تعني بهذا القول؟».

«اعني انّ جايلز المسكين يتمنّى الآن ان يكون لديه نصف فطانتي وقلة تهذيبي وان ينجح في استخدام هاتين الصفتين. كما انّ جنيفر تشعر في المقابل بمزيد من الاحتقار له لضعف شخصيته وقلّة جرأته».

«جنيفر لا يمكن ان تفكر هكذا. انها تجدك رجلاً جلفاً وفظاً. وهي مثلي لا تحبك او تطيقك».

ابتسم جايك رغماً عنه بسبب حماسها واندفاعها، ولكنها لم تكن ابتسامة سارة او صافية. ثم قال لها بسخرية:

«وهل تصدّقين ذلك؟ الا تعلمين انّ صديقتك جنيفر مستعدة للتضحية بالغالي والرخيص لتحلّ محلك؟».

«وماذا تعني بذلك؟».

«ما اعنيه ايتها الزوجة الارستقراطية البريئة انّ جنيفر هي بالنسبة الي صيد سهل! أتفهمين؟ مجرّد اشارة واحدة فقط من زوج صديقتها وصديق زوجها...».

تسارعت نبضات قلبها واخذت تتنفس بسرعة وعصبية، ثم قالت له بكره واشمئزاز:

«انك... انك سافل وحقير، وانا لا اصدقك! جنيفر ليست هكذا ابداً. لقد قلت لك... انها تحتقرك!».

«وهل تريدين مني ان اثبت لك ما قلته؟».

«اوه، لا. لا. بالطبع لا!».

«ولم لا؟ هل تخشين ان اثبت لك صحّة ما اقول؟».

هزّت هيلين رأسها حزناً ولوعة! انها لا تريد التفكير! لا تريد ان تتذكر تلك الضحكات التي سمعتها في بداية السهرة، ولا تلك النظرات التي شاهدتها! لأنها لو تذكرت... لاضطرت لتصديقه. لا، انه يكذب ويدّعي باطلاً! هذا غير صحيح، فجنيفر هي صديقتها! ولكن...

«انا ذاهبة الى الفراش، ولا اريد التحدّث في هذا الموضوع».

حرّك جايك عضلات كتفيه بتثاقل وقال:

«وهذا يعني بالطبع انهاء المحادثة... هكذا».

توقفت عن سيرها باتجاه الباب واستدارت نحوه قائلة:

«ألم يكن كافياً كل ما قيل حتى الآن؟ انا لا افهمك يا جايك. تذمّرت بعنف عندما صدف انني كنت خارج البيت عند عودتك من الولايات المتحدة. ومع ذلك، فانك الآن تدفعني لا بل ترغمني على حضور الحفلة الموسيقية مع كيث. . .».

«عندما كنت خارج البلاد سهرت مع كيث، اليس كذلك؟ لم تهتمّي على الاطلاق بما قد يقوله الناس. اما الآن، فعندما ينتشر الخبر انني انا الذي اعددت هذا اللقاء مع كيث، فان الاقاويل والشائعات حول علاقتك معه ستخفّ الى حدّ كبير. ما من احد يهزأ بجايك هوارد ويستخف به، وينجح. تذكري ذلك!».

«ماذا تعني الآن بهذا الكلام؟».

اشعل سيكارة وقال لها ببرودة بالغة:

«انك متعبة. لن ازعجك بالتفاصيل».

«اوه جايك، بحق السماء!».

«اذهبي الى الفراش يا هيلين. كما قلت لي، انك لا تفهمينني. ولكنك ستفهمين! صدقيني، ستفهمين!».

استدارت نحوه غاضبة وكانت على اهبة مواجهته باعماله المخزية وعلاقاته الغرامية المفضوحة، ولكنها لم تتمكّن. كانت ستبدو كزوجة تدبّ فيها الغيرة. . . وهذا شعور لم يزعجها قط قبل الآن. الا انها في هذه الليلة بالذات، وبعد ضحكات الغنج والدلال التي سمعتها من جنيفر، شعرت بانّ مجرد تفكيرها باقامته علاقة ما مع امرأة اخرى. . . امر مثير للغضب. . . والغيرة.

٣- الوحدة القاتلة

كان المطعم في هذه الفترة من الصباح غاصاً بالزبائن، ومعظمهم من سيدات المجتمع الأنيقات اللواتي اخترن هذا المكان للقاء بعضهن بين فترات التسوّق الصباحية. وفي هذا الجو الذي يعجّ بالضحك والثرثرة ويعبق برائحة العطور النادرة والباهظة الثمن كانت هيلين وجنيفر تشربان القهوة وتأكلان الحلوى.

وفيما كانت جنيفر على وشك البدء بقطعة كبيرة ثانية من الحلوى، تطلّعت بقوامها منتقدة وقائلة:

«يجب عليّ ان احاول بجدية حقيقية الحد من تناول الحلويات. لن أفرح كثيراً ان أضفت الى وزني بضعة كيلوغرامات. أزياء العصر لا تتناسب مع السمنة».

نظرت اليها هيلين وقالت بلطف:

«لا اعتقد أن هناك خطراً على قوامك يا عزيزتي. انك نحيلة وذات قد جميل».

«نعم، ولكن الى متى أظلّ هكذا اذا واصلت التهام هذا القدر من الحلويات؟».

ثم تنهّدت وتابعت حديثها:

«هل تذكرين عندما كنا في المدرسة؟ كنا نأكل كميات ضخمة ولا ترف لنا عين! ولذا أعجب من تزايد وزننا كلما تقدمنا في السن».

«اعتقد أن السبب الرئيسي يعود الى قلة الحركة والتمارين بالمقارنة مع أيام الدراسة. أذكر أننا كنا نمارس السباحة بكثرة، كما كنا نمضي عدة

ساعات في الاسبوع في ملاعب كرة المضرب».

ابتسمت جنيفر ثم قالت:

«أوه، نعم! كرة المضرب! كنت جيدة جداً في تلك اللعبة».

هزت هيلين برأسها وتنهّدت بارتياح. ذكريات أيام الدراسة أراحت أعصابها نوعاً ما. في تلك الأيام، كانت تربطها بجنيفر صداقة متينة. فلماذا تغيّرت العلاقة الى هذا الحد؟ بالطبع، انهما الآن متزوجتان وكل منهما أصبح لها بيتها ومسؤولياتها وواجباتها. ولكن المسألة لا تقتصر على ذلك. فالمشكلة انه لم تعد تجمع بينهما تلك القواسم المشتركة وتلك الاهتمامات المتبادلة. وفجأة، سألتها جنيفر ببساطة مصطنعة:

«بالمناسبة، كيف حال جايك هذه الأيام؟».

رفعت هيلين فنجان القهوة مرة اخرى وقالت:

«بخير، على ما أعتقد. انه مسافر».

«مسافر؟ مرة اخرى؟».

لم ترفع هيلين نظرها عن فنجان القهوة، ولكنها أوضحت بشيء من التردد:

«انه الآن في شمال انكلترا. ذهب لتفقد معمل للكيماويات».

«وماذا حدث تلك الليلة، بعد حفلة الاستقبال في السفارة؟ هل كان متزعجاً كثيراً من ظهور كيث على ذلك الشكل؟».

كانت هناك سخرية واضحة في اسئلتها ونظراتها. وشعرت هيلين أيضاً بأن روحاً من الشماتة تغلف تلك الاسئلة. نظرتها الى جنيفر اختلفت كثيراً بعد الكلام الوقح، الذي سمعته عنها من جايك نفسه. ومع انها حاولت ان تقنع نفسها بعدم صحة ما قاله، فقد ظلّت تراودها بعض الشكوك حول تصرفات صديقة الدراسة. ولكن... أليس من الممكن ايضا ان يكون ذلك هدف جايك بالذات؟ فرّق تسد! هزّت برأسها وأعادت الفنجان الفارغ الى الطاولة. مهما كان الأمر، فالواضح ان جنيفر تبدي اهتماماً غير عادي بمجمل القضية. وعليها بالتالي أن تدرس جوابها بدقة قبل ان تتفوه بأي كلمة قد يساء فهمها او تنقلب ضدها.

«ولماذا يتضايق عندما يكون هو ذاته الذي أعدّ لذهابي مع كيث الى الحفلة الموسيقية؟».

بدت جنيفر غير مرتاحة لذلك الرد، فعادت الى السؤال:

«هل تعنين انه لم يكن متضايقاً أبداً؟».

تنهّدت هيلين وأجابتها بهدوء:

«انا لم اقل ذلك بالضبط. ما قلته هو ان جايك يجب الا يتضايق لأنه هو الذي أعدّ لحضوري تلك الحفلة مع كيث».

«اعتقد انك أنت المذنبة بحق نفسك عندما تسمحين له بهذا التسلّط. أنا لا يمكن أبداً ان أدع جايلز يتصرف بحياتي على هذا الشكل!».

ابتسمت هيلين وقالت:

«جايك ليس هكذا على الاطلاق. واعتقد ان الترتيبات المتفق عليها فيما بيننا تسير بصورة حسنة وطبيعية».

«ولماذا؟ ماذا تحاولين قوله يا هيلين؟ جايك سافر معظم الوقت وأنت قابعة في البيت تنتظرين! هل تعتقدين أنني أسمح لجايلز بالذهاب وحده الى كل تلك الأمكنة الرائعة والمثيرة؟ لا، وحقك لا! اني أصرّ على الذهاب معه كل مرة يغادر فيها لندن».

قررت هيلين الاحتفاظ بالهدوء حتى النهاية، لأن الانفعال في مثل هذه الأوقات ضار ومؤذ. لذلك قالت لها:

«ان وضعك يختلف قليلا عن وضعي يا جنيفر. أنت تحبين جايلز... وهو يحبك».

ردّت جنيفر بحدة وهي تطفيء سيكارتها بعصبية ظاهرة:

«لم أعد متأكدة من أن هذا القول صحيح. نعم، كان هناك حب متبادل في بداية الأمر ولم نتزوج الا على هذا الأساس. ولكن ماذا يبقى لك بعد ان تخف بهجة شهر العسل وفرحته؟ لا يبقى سوى علاقة تختلف في حرارتها وبرودتها بين يوم وآخر، وزوج يتخيل أن الحب علاقة تقوم في الليل... ودائما في الظلام!».

«جنيفر!».

هزّت جنيفر بكتفيها تململا وضجراً وقالت:

«ما بالك يا هيلين؟ انها ليست نهاية العالم! أنا لم اكتشف فجأة ما أشعر به بالنسبة الى حياتي الزوجية. هذا الشعور يخالجني منذ سنوات، ولكني اضطر للبوح به بين الحين والآخر. والمؤسف أنك لم تكوني موجودة في

المرات السابقة لكي اكتفي بكشف سرّي لك دون غيرك».

«ولكن. . . ولكن لماذا؟ أنا لا أفهمك يا جنيفر! لديك كل شيء! بيت جميل، سيارتك الخاصة، مال كثير، زوج يحبك. . .».

قاطعتها جنيفر بانزعاج قائلة:

«ولكنني أشعر بالضجر يا هيلين! بالضجر! هل تفهمين؟».

هزّت هيلين رأسها نفيا واستوت في كرسيها ثم قالت:

«انك متزوجة منذ خمس سنوات، وأظن أن الوقت قد حان لانشاء عائلة. . .».

«أوه، كم أنت ضيقة ومحدودة التفكير!».

قالتها جنيفر بانفعال، ثم تنهدت وتابعت حديثها بعصبية واشمئزاز:

«عائلة! بالله عليك يا هيلين، هل تظنين انني أريد طفلا بقربي يصرخ ويزعق طوال الوقت؟ هل تتصورين انني أريد المزيد من المسؤوليات؟».

«لم اعتقد ابداً انك قد تفكرين بمثل هذه الطريقة!».

«أنا لا أفكر هكذا. . . طوال الوقت، على الأقل! وهذا من حسن حظي، ألا توافقين على ذلك؟».

ثم استرخت في كرسيها وأشعلت سيكارة اخرى وهي تسأل:

«هل تريدين المزيد من القهوة؟».

«ماذا؟».

كانت هيلين غائبة بتفكيرها وشاردة بذهنها فلم تسجل على الفور المعنى الصحيح لذلك السؤال الذي وجهته جنيفر بصورة طبيعية وكأن شيئا لم يحدث. ثم استجمعت قواها وقالت:

«أوه، أوه! نعم، نعم بالطبع!».

مالت الى الأمام ورفعت ابريق القهوة، ثم صبت فنجانين وقالت لجنيفر:

«كيف وصلنا الى مثل هذه الاحاديث المزعجة، لا بل كيف بدأناها! أنا متأكدة من أن هناك مواضيع اكثر فرحاً وأقل ازعاجاً. . .».

قاطعتها صديقتها بلهجة قوية وجافة:

«كنا نتحدث عن نواقص زوجك وعيوبه. . . وهي كثيرة ومتنوعة لدرجة انك أنت غير قادرة على نفيها او اخفائها!».

احمرّ وجه هيلين ضيقاً وذكّرت نفسها بأن تصرفات جنيفر كانت فعلا تزعجها في بعض الأحيان، وان ذلك الصباح بالطبع لم يكن أفضل من غيره. وتمنت لو انها لم توافق على الاجتماع بها، ولكنها شعرت في الوقت ذاته ان ازعاج جنيفر هو اقل شأناً وتأثيراً من البقاء في البيت وحيدة. . . وسجينة. ولما لم تعلّق بشيء على ملاحظة جنيفر القاسية، قالت لها:

«ما بك يا هيلين؟ يبدو انك تغيّرت بعض الشيء. في البدء لم تكن صديقتي حساسة الى هذه الدرجة عندما نتحدث سوية عن شؤون زوجها. اما الآن. . . هل هناك مشكلة اخرى يا هيلين؟ هل بدأت تشعرين بأن المال ليس كل شيء؟».

نفت هيلين تلك التهمة الشنيعة بحدة وحماسة، قائلة وهي تكاد تغرز اظافر يديها في عنقها من شدة الغضب:

«أنا لم اعتبر أبداً ان المال هو كل شيء في هذه الدنيا!».

ابتسمت جنيفر بسخرية وقالت بتأفف:

«حسناً، حسناً! ولكن بحق السماء، لماذا تبدو عليك الدهشة والذهول كلما قلت شيئاً؟ كل ما في الأمر ان مزاجي متعكّر جدا، وان من سوء حظك ان تكوني أنت ضحية لهجتي القاسية وكلماتي اللاذعة».

رشفت هيلين قليلا من القهوة وهي تحاول ضبط اعصابها والحد من انفعالها. ولكن كلمات جايك عن جنيفر وسهولة استسلامها له عادت تضج في رأسها رغماً عنها. ورأت نفسها تنظر الى صديقتها من زاوية مختلفة وبمنظار آخر. وتألمت كثيراً عندما تخيلت صحة أقوال جايك فيما يتعلق باستعداد جنيفر لاقامة علاقة معه! لا، من المؤكد انه كان يكذب. ألم يكن مفروضاً عليها ان تعتاد على ميوله ونزعاته الغريبة طوال سنوات الزواج الثلاث؟ بلى، ولكن المفترض شيء والواقع شيء آخر! الا ان فكرة اهتمام جنيفر بجايك على هذا النحو أمر يستحيل عليها التفكير به او تصوّره. هل من المعقول. . ؟ ولكنها تفترض مسبقاً حدوث شيء ربما لن يحدث على الاطلاق! ومع ذلك. . . فانه لم يعد بامكانها النظر الى جنيفر كما كانت تنظر اليها في السابق. وما شاهدته وسمعته منها في هذا الصباح لا يمكن تبريره او مسامحته او حتى. . . تناسيه.

وبحثت في رأسها عبثاً عن كلمات تشق بها الصمت المزعج الذي خيّم

عليها. يجب ان تقول شيئا . . . وبسرعة، لأنها ان لم تفعل ذلك ستشعر جنيفر بأن هناك اسباباً أخرى حملت هيلين على عدم التحدث كثيراً عن زوجها او بحث تصرفاته معها! ولحسن الحظ، دخلت في تلك اللحظات سيدة شابة وحيتها بصورة رسمية. انها ماري سوليفان زوجة عضو مجلس العموم البريطاني. دعيت للانضمام اليها فقبلت الدعوة شاكرة. وكالعادة، تحوّل الحديث الى الطقس وأزياء الخريف وما شابه. وبعد نصف ساعة تقريباً، وقفت السيدة سوليفان وشكرتها على دعوتها اللطيفة وودعتها على أمل اللقاء في وقت لاحق. اغتنمت هيلين الفرصة وأعربت عن رغبتها في العودة الى بيتها. وفيما كانتا تتوجهان نحو الباب الخارجي، سألتها جنيفر بشكل طبيعي جداً، وكأن شيئا لم يحدث بينهما:

«متى تتوقعين عودة جايك من السفر؟ أريدكما ان تحضرا للسهرة وتناول العشاء معنا قبل أن يختفي جايك في رحلة اخرى».

حدّت هيلين من رغبتها في القول انها لا تعرف موعد عودة جايك، وأجابت بهدوء مماثل:

«شكراً جزيلاً، يا جنيفر. اعتقد انه سيعود في أواخر الاسبوع. انها مجرد رحلة سريعة الى معامل الشمال».

«أوه، هذا رائع! هل يناسبكما اذن مساء الأحد؟».

«ولمَ لا؟ ولكن سأتصل بك للتأكيد».

تأملت جنيفر وجه هيلين بعناية وجدّية ثم قالت فجأة:

«كل شيء على ما يرام يا هيلين، أليس كذلك؟ أعني . . . أعني هل أزعجك ما قلته لك هذا الصباح؟».

أرغمت هيلين نفسها على الابتسام ثم قالت:

«بالطبع لا، يا جنيفر. اني . . . اني اشعر بصداع قوي. اعتقد انه يجب عليَّ التوجه الى البيت والاستلقاء بعض الوقت».

بدا السرور والارتياح على وجه جنيفر عندما سمعت أن هيلين ليست غاضبة، ثم قالت لها:

«لا تنسي أن تتصلي بي بالنسبة الى سهرة الأحد».

عندما عادت الى البيت في كيرسلاند كانت تشعر بكثير من الارتياح النفسي والفكري، وكأنها اقنعت نفسها بأنها جعلت من الحبة قبة. وحتى

انزعاج السيدة لاتيمر الواضح من اضطرارها لاعادة تسخين الأكل نتيجة لتأخر السيدة ساعة كاملة، لم يعكّر مزاج هيلين. اعتذرت من خادمتها بتهذيب وجلست الى المائدة لتناول طعام الغداء بهدوء وسكينة.

«اتصل السيد ماتربنغ قبل قليل وكان يريد التحدث معك يا سيدتي».

وضعت هيلين الملعقة من يدها وسألت باستغراب:

«السيد ماتربنغ؟».

ضمّت السيدة لاتيمر ذراعيها وقالت بلهجة تنم عن الشعور بالأهمية:

«نعم يا سيدتي».

عقدت هيلين جبينها ورفعت الملعقة نحو فمها ثم سألت باكتراث وانفعال أقل من السابق:

«وهل أبلغك عما يريد؟».

هزّت الخادمة كتفيها وقالت:

«لا يا سيدتي. ولكنه تمنّى عليك الاتصال به بمجرد عودتك الى البيت».

«أوه!».

ماذا يريد كيث منها الآن غير التحدث بشأن الحفلة الموسيقية؟ ولكن لا يزال هناك أسبوع بكامله قبل موعد الحفلة! تنهدت هيلين وهزت برأسها وهي تتابع أكلها. ثم وجّهت ابتسامة خفيفة نحو مديرة المنزل وقالت:

«شكراً لك يا سيدة لاتيمر. سأتصل به في وقت لاحق».

تعكّر مزاجها وفقدت شهيتها مع أن الطعام كان لذيذاً وحسب رغبتها وطلبها. فبعد حديثها ذلك الصباح مع جنيفر لم تعد راغبة في لقاء احد. وان كانت تلك رغبة كيث فانه بلا شك سيصاب بخيبة امل كبرى.

اتصلت به حوالى الخامسة فلم يستطع اخفاء سروره لذلك الاتصال. وبعد كلمات الترحيب والسلام التقليدية، قال لها من دون ابطاء:

«اخبرتني جنيفر ان جايك مسافر في الوقت الحاضر. فما رأيك بتناول العشاء معي هذه الليلة!».

تنهدت هيلين بتململ وانزعاج. جنيفر! الصديقة العزيزة! لم تتأخر على الاطلاق، بل سارعت للاتصال بكيث وابلاغه الأمر بمجرد عودتها من المطعم! لماذا يا جنيفر؟ وشعرت فجأة بشيء من الازدراء لهذا التدخل السافر في حياتها وشؤونها الخاصة. ولكن، ألا يعقل مثلا ان تكون جنيفر

على اقتناع بأن صديقتها ترحب بأي فرصة للاجتماع بكيث؟ آه منك يا جنيفر! متى تصدقين ان كل شيء بيننا قد انتهى تماما منذ ثلاث سنوات؟

«متأسفة يا كيث، ولكني لم اعدّ نفسي لاي سهرة هذه الليلة».

«وهذا سبب آخر يجب ان يحملك على قبول دعوتي».

ثم تنحنح وقال بلهجة حازمة:

«اسمعي يا هيلين! هناك مكان جديد في هنلي، وقلت لنفسي لماذا لا نجرّبه سويا! يمكننا الاكتفاء بتناول الطعام واعادتك باكراً، الا اذا رغبت انت في اطالة السهرة».

ترددت هيلين كثيراً في الاجابة. السيدة لاتيمر تعدّ لها العشاء في السابعة وتذهب الى غرفتها، في حين تظل هي وحيدة ضجرة تتململ عدة ساعات قبل الذهاب الى سريرها. انها لا تنام باكراً ابداً، كما انها لا تنام كثيراً في تلك الأيام. فلماذا لا تذهب مع كيث الى حفلة عشاء بريئة؟ وفجأة ضجّت أفكارها بصور جايك. ماذا يفعل في تلك الأمسية؟ هل سيمضي تلك الليلة وحيداً في جناحه الفخم؟ انها تشك في ذلك كثيراً. فمن الأرجح انه يقيم حفلة طنّانة لكبار موظفيه في احد النوادي الليلية هناك تستمر حتى الساعات الاولى من الصباح، ثم ينهيها مع... ! اذن لماذا التردد؟

«حسناً يا كيث، لم لا؟ متى نذهب؟».

شعر كيث بسعادة بالغة وسألها بلهفة:

«هل السابعة وقت مبكر جداً؟».

تطلعت هيلين بساعتها الذهبية الرقيقة وأجابته بعد ان قدرت لنفسها الفترة التي ستحتاجها لتأخذ حماماً وترتدي ثياب السهرة:

«لا... لا اعتقد ذلك! السابعة تناسبني. هل ستأخذني من هنا؟».

«طبعاً، طبعاً. الى اللقاء اذن».

أعادت هيلين سماعة الهاتف بشيء من التردد. فمع انها قطعت وعداً على نفسها بتناول العشاء معه، الا انها في الحقيقة لم تكن راغبة كثيراً في مغادرة المنزل تلك الليلة. لو لم يتصل بها كيث، لكانت ألهت نفسها على الأرجح بمشاهدة بعض البرامج التلفازية، او ربما في قراءة ذلك الكتاب الذي ابتاعته قبل بضعة ايام. اما الآن فقد وافقت على تمضية عدة ساعات

بصحبة رجل قد يشكل لها وجوده معها مصاعب معينة، على الرغم من ان ذلك الوجود يفرحها ويسليها. اذ ان كيث، شأنه في ذلك شأن جنيفر، قد لا يقبل تماما بأن تكون علاقتهما الراهنة مختلفة الى حد كبير عن تلك التي كانت قائمة قبل بضع سنوات.

أمضت ساعة كاملة تريح اعصابها وهي غارقة حتى عنقها في ماء ساخن معطّر، ثم ارتدت ثيابها وسرحت شعرها وجلست تنتظر في غرفتها.

في السابعة الا خمس دقائق رنّ الجرس ففتحت الباب السيدة لاتيمر التي كانت على علم مسبق بقدوم كيث، ودعته الى الدخول وانتظار السيدة في قاعة الجلوس. وبعد بضع دقائق، نزلت هيلين وبادرته السؤال:

«هل شربت شيئاً؟».

ابتسم كيث بشيء من السخرية وأجابها:

«في الحقيقة، لم أشرب شيئاً. خادمتك لا تفرح كثيراً بقدومي، وفعلا اني أخشى لمس أي شيء في هذا المنزل ان لم تكوني أنت موجودة... مخافة اتهامي بالسرقة».

ضحكت هيلين وقالت:

«انك تبالغ كثيراً، أليس كذلك؟ في اي حال، هل تشرب شيئاً؟».

تطلّع كيث حوله بعصبية وتردد، ثم قال:

«هل هناك أي مجال على الاطلاق لانقضاض ذلك الزوج العنيف علينا بشكل مفاجيء؟ أعني... انني اكره كثيراً لقاء الأسد في عرينه!».

هزّت هيلين رأسها بتململ واضح وقالت له:

«الان تأكد لي انك تبالغ كثيراً. قل لي بربك، ماذا تشرب؟».

تردد كيث قليلا وقال:

«أي نوع من أنواع العصير الموجودة هنا».

ثم اخرج علبة سكائره وعرض واحدة على هيلين فرفضت شاكرة. اشعل سيكارته فلاحظت هيلين ان يديه الثابتتين عادة، كانتا ترتجفان قليلا. هل يخيفه جايك الى هذا الحد يا ترى؟ أليس مضحكاً ان يشعر كيث بالخوف من زوجها؟ ولكن تخوفه من جايك امر طبيعي. لقد شاهدت اشخاصاً كثيرين أشد وأدهى من كيث يتحطمون على صخرة تلك الشخصية القوية والفذّة التي يتمتع بها جايك. هذا الرجل الذي تزوجته

قبل ثلاث سنوات يحطم منافسيه ويسحقهم معنوياً، لا بالكلام الذي يقوله ولكن بالاسلوب الذي يتبعه.

كان المطعم الذي أخذها اليه كيث قريباً من النهر وعلى مفترق طرق رئيسية. طابعه عصري للغاية وكل شيء فيه حديث الى أبعد الحدود. ومع ان هيلين وجدته جميلا جدا، الا انها كانت تفضل مطعماً اصغر حجماً ولا يؤمه هذا العدد الكبير من السكان المحليين. ومع ذلك، كان الطعام شهياً ولذيذاً وأحاديث كيث ممتعة ومسلية. انه يتحدث بذكاء وموضوعية عن مسرحيات او حفلات شاهداها سوية، ويناقش باسلوب علمي هادىء الكتب الناجحة التي تهم المتعلمين والمثقفين. وكانت هيلين سعيدة جداً بتبادل الآراء مع هذا الانسان المطّلع، خاصة ان ظروفها لم تسمح لها بمثل هذه المناسبة منذ زمن طويل. فحتى لو أمضى جايك معظم وقته داخل البيت بدلا من خارجه فانه لن يعتبر هذه الموضوعات الأدبية والفنية جديرة بالاهتمام. انه يعتبرها مضيعة للوقت، ومن يعرف تاريخ حياته يعرف السبب. ففي صراعه القاسي وكفاحه المرير للصعود الى قمة النجاح المادي والتجاري، لم يجد متسعاً من الوقت للآداب والفنون. ولذا ظل ذوقه الفني بدائياً وخشناً، وظل بالتالي يرفض الخوض في أحاديث لا تعود عليه بفائدة مالية او تجارية.

أوصلها كيث الى منزلها بعد العاشرة بقليل. وعندما أوقف السيارة وأطفأ محركها، استدار نحوها ووضع ذراعه على كتفيها ثم سألها متودداً:

«هل ستدعوني السيدة الى فنجان من القهوة؟».

تطلعت هيلين بسرعة الى ساعتها وقالت:

«لا اعتقد ذلك. الوقت متأخر، والسيدة لاتيمر نائمة منذ بعض الوقت».

ردّ عليها كيث بمرح ظاهر:

«أعرف ذلك».

تنهدت هيلين وقالت:

«كيث أرجو الا تأخذ فكرة خاطئة عني! فمجرد خروجي معك مرة او مرتين لا يعني انني...».

قاطعها كيث متبرماً:

«أعرف، أعرف أنك متزوجة! ما هو الخبر الجديد في ذلك؟ وماذا يؤثر زواجك على علاقتنا؟ الكل يعرف أن...».

حان دورها لتقاطعه، فقالت له بحزم واصرار وهي تخرج من السيارة:

«شكراً على العشاء. اتصل بي بشأن الحفلة الموسيقية في الاسبوع المقبل».

ضم كيث شفتيه بشيء من العصبية وسألها:

«لن تغيّري رأيك؟».

«بالنسبة الى الحفلة الموسيقية لا، ولماذا أغيّر رأيي؟».

«أنا لم اقصد الحفلة، واعرف تماماً انك تعلمين ماذا اعني. حسناً يا هيلين! تصبحين على خير».

«تصبح على خير، يا كيث».

أخرجت هيلين مفتاحها من حقيبتها وفتحت باب المنزل في حين أطلق كيث العنان لسيارته. كانت القاعة غارقة في الظلام فأضاءت النور في المدخل قبل أن تغلق الباب وراءها. ثم تطلعت بسرعة نحو القاعة وغرفة المكتب لتتأكد من عدم وجود أي اشارة الى احتمال عودة جايك بصورة غير متوقعة من رحلته الى الشمال. وضعت معطفها على أحد المقاعد واتجهت مباشرة نحو المطبخ لتجد ملاحظة من السيدة لاتيمر تبلغها فيه عن وجود قهوة وبعض المأكولات الباردة في قاعة الاستقبال. ابتسمت هيلين بسخرية.

استدارت هيلين بسرعة عائدة الى قاعة الجلوس. تنهّدت بانزعاج عندما شاهدت الكمية الكبيرة من المأكولات التي أعدتها السيدة لاتيمر. كان واضحاً ان مديّرة المنزل لم تتوقع عودتها بمفردها الى البيت. اللعنة! وهل تظنّها هذه السيدة طفلة صغيرة؟ اذا أرادت أن يكون لها أصدقاء، فلماذا لا يحق لها ذلك؟ لماذا يجب ان تكون هناك دوافع وراء كل عمل يقوم به الانسان؟ انها تعرف كيث منذ عدة سنوات، قبل فترة طويلة من انجرافها في علاقة عاطفية. وعليه، فلماذا يجب أن تكون الأمور مختلفة هذه المرة؟

هزّت كتفيها وجلست بعد أن صبّت لنفسها فنجاناً من القهوة. لماذا انتهت أمسيتها على هذا الشكل؟ لماذا سارت هكذا؟ تطلعت الى ساعتها فلاحظت أن ستين دقيقة تقريباً مرت على عودتها. ماذا يفعل جايك الآن؟

وأين من الممكن أن يكون في مثل هذا الوقت؟ شربت قليلا من القهوة، وسألت نفسها عن أسباب هذه التساؤلات. . . فأغضبها اندفاعها. يجب الا تسأل عن مكان وجوده وعما يفعل في هذا الوقت أو ذاك. لا تهتم ويجب الا تهتم! أم أن من الأصح القول انها عندما بدأت تعرف المزيد عن أفكاره ومشاعره، أخذت اسئلتها وتكهناتها تتزايد يوماً بعد يوم! عندما تزوّجا، كان الوضع مختلفاً الى حد ما. كانت آنذاك لا تزال دفينة الحزن والأسى اللذين خلفاها على أثر وفاة والدها. كانت فترة عصيبة جداً بالنسبة اليها! صدمة قوية ومؤلمة! وهي التي تربطها بأبيها علاقة وطيدة جداً، وكان كل منها يعتمد الى حد كبير على الآخر، ربما بسبب قرار عائلته عزلها والتخلي عنها كلياً. كان لكل منها بالطبع أصدقاء، ووالدها يبدو دائماً مفعماً بالحيوية والنشاط، ساحراً، لطيفاً، ومنسجماً تماماً بين اصدقائها. ولم تلاحظ الا بعد وفاته كيف أن ما من أحد آخر بات يعني لها الكثير، في ذلك الوجود الغريب المصطنع الذي كانت تتشاطره مع أبيها! حتى تهرّب كيث منها لم يؤثر عليها كثيراً. كان عليها أن تتقبل واقعاً جديداً في حياتها، وهو انتهاء مرحلة معينة وبدء أخرى.

صبّت لنفسها فنجاناً آخر من القهوة ولكنها زادت عليه هذه المرة قليلا من السكر. وعادت بها الذكريات مرة أخرى الى تلك الفترة من حياتها. ولكنها لم تتذكر طول المدة التي احتاجتها آنذاك للشفاء تماماً من تلك المشكلة النفسية والمعنوية. وجاءت بعد ذلك الفترات الطويلة التي يمضيها جايك خارج البلاد وعودته كل مرة بصورة مفاجئة لتشكّل فواصل شبه ثابتة في نمط حياتها. وأصبحت كل فترة أكثر واقعية وأقل رفضاً. وبدأت بعد ذلك بصورة تدريجية تعيش حياتها الجديدة التي اختارتها لنفسها. . . تكرّس نفسها ووقتها لتزيين بيتها وتجميله ولتحويل ذاتها وشخصيتها الى ذلك النوع من الزوجات الذي يريده جايك. ولكن الشيء الذي لم تكن تتوقعه كان ذلك الاتساع المتزايد في طبيعة العلاقة، وذلك الاختراق المتواصل للقلعة التي بنتها حول نفسها بعد زواجها والتي اعتقدت أن من المستحيل الدخول اليها أو اختراقها. لم تأخذ الطبيعة البشرية بعين الاعتبار عندما صوّرت لنفسها المستقبل الذي تريده. واكتشفت فجأة انها وجايك يمكن في يوم ما أن يتصرفا مع بعضهما كزوجين عاديين.

شربت هيلين بقية القهوة وسارت نحو تلك الخزانة الخشبية الرائعة التي تضم الأجهزة الالكترونية المختلفة ووضعت شريطاً يحتوي موسيقاها المفضلة. وعضت على شفتها بحزن وانفعال! انها بالنسبة الى جايك كهذه الأجهزة المتطورة والجميلة. . . مجرد شيء آخر يمتلكه، لا أكثر ولا أقل! حتى الممتلكات المادية تحتج وتتذمر! اذا حمّلها الانسان فوق طاقتها تئن وتتعطل! أما هذا الشيء، الذي أضافه جايك الى ممتلكاته الكثيرة، والذي يسير على قدمين، فانه لم يعترض أو يحتج حتى الآن! انه انسان آلي!

رفعت رأسها عن تلك الخزانة وتنهدت. هل من حقها ان تحتج؟ انها تأكل أفضل أنواع المأكولات، وترتدي أجمل الثياب وأغلاها ثمناً، وتشتري ما تريد. . . حتى بدون طلب الاذن من زوجها! أليس هذا ما تتمناه أي فتاة لنفسها! ثم. . . أليس زواجها اقلاقاً متواصلا لراحة عمها الذي لا أولاد له، والذي يعرف أن أي ابن تلده هيلين سيرث قصر ماليز والأراضي المحيطة به بمجرد وفاة هذا العم! أليس ذلك انتقاماً ممتعاً من الرجل الذي نبذ شقيقه جيرارد وابنته هيلين وتنكّر لهما في اتعس أوقاتهما! انه بالتأكيد يتمنى ألا تلد ابنة شقيقه ابناً يرث ممتلكات فورسايث.

وابتسمت هيلين بخبث! انها وحدها تعرف مدى صعوبة ذلك الاحتمال. . .

٤- صمت في الأعماق

إستيقظت هيلين وهي تشعر بأن احداً يراقبها. وعندما رفعت يدها بكسل لترفع خصلات شعرها عن عينيها، شاهدت جايك يقف كالتمثال في باب غرفتها. كان يرتدي بزة زرقاء داكنة تزيد من سحره وجاذبيته. أصابتها رعشة خفيفة لم تعرف على الفور سببها فشدّت الغطاء الحريري حتى عنقها بطريقة لاشعورية، وكأنها تدفع عن نفسها خطراً محدقاً.

ابتسم بسخرية لدى مشاهدته ردّ الفعل العفوي ذلك وقال لها بخبث وتهكم:

«لا تفزعي يا عزيزتي! لم أقد السيارة طوال الليل من نيوكاسل. تدفعني رغبة جائعة أو رغبات حيوانية! ولكنني متعب، لا بل مرهق. وأريد التحدث اليك قبل ذهابي الى النوم».

حاولت هيلين بسرعة جمع شتات أفكارها ومشاعرها، وسألته متلعثمة:

«لماذا... لماذا تريد التحدث معي؟».

رفع كتفيه المتعبتين ثم حرّك رأسه قليلا وقال لها بهدوء بالغ:

«سنمضي عطلة نهاية الاسبوع خارج لندن. تمّ اعداد كل شيء الليلة الماضية. حاولت الاتصال بك أمس لأبلغك التفاصيل، الا ان احداً لم يرد على الهاتف. هل كنت خارج البيت؟».

لم تتمكن هيلين من منع الاحمرار الذي غزا خديها فجأة. وشعرت أن وجودها تحت الغطاء، وعدم قدرتها على النهوض من دون الكشف عن بعض مفاتنها يجعلانها في موقف دفاعي ضعيف. وتمنت لو ان لها الشجاعة الكافية للخروج من سريرها ولفّ نفسها بشيء، ما فوق قميص النوم الشفافة.

تطلّع جايك حوله بعصبية فوقع نظره على فستان السهرة الذي كان ملقى على كرسي قريب. رفع حاجبيه وقال لها بنبرة حادة وجافة:

«اذن كنت خارج البيت أمس! هل يمكنني ان اسألك أين أمضيت السهرة؟».

تنهّدت هيلين وردّت عليه بعصبية:

«انك لست وليّ أمري والقيّم على أعمالي يا جايك، وأنت تعرف ذلك!».

ضاقت عيناه غضباً وقال لها بحدّة:

«ان لم أكن أنا وليّ امرك، فمن يكون؟ اخبريني، من هو المسؤول عنك؟».

غلى الدم في عروق هيلين غضباً واشمئزازاً، وقالت له بعنف:

«هل تتفضل بالخروج من غرفتي؟ لا أريد البقاء في سريري طوال النهار».

«هيّا، اخرجي من سريرك! أنا لا أمنعك من ذلك».

ضمّ ذراعيه على صدره وأخذ يحدّق بها بتهكم وكأنه يتحدّاها للوقوف أمامه شبه عارية. انقلبت هيلين على نفسها وعضّت وسادتها وهي تصرخ به:

«أكرهك يا جايك هوارد! أكرهك!».

«لماذا ايتها العزيزة؟ ألأنني عدت فجأة وأفسدت لك مشاريعك مع الصديق كيث؟ ألم تكوني معه هو أمس؟ لا تزعجي نفسك بالاجابة، فأنا أعرف. اخبرتني السيدة لاتيمر».

استدارت هيلين بعصبية نحوه وقالت:

«وهكذا اذن! لقد عيّنت السيدة لاتيمر جاسوسة على تصرفاتي وتحركاتي، أليس كذلك؟ آه، كم أنت حقير وخسيس ووضيع!».

قست ملامح جايك وتوترت عضلات وجهه وعنقه، ثم قال لها بصوت أقرب الى الصراخ منه الى الكلام العادي:

«عندما اتصلت بالمنزل امس ولم يجبني أحد، شعرت بالقلق. لم يخطر ببالي شيء آخر آنذاك. وبالطبع، اتصلت بالسيدة لاتيمر لمعرفة ما بك. ألم يكن ممكناً ان يكون هاتفنا معطلا او ان تكوني أنت مريضة، او... أو أي

شيء آخر من هذا القبيل؟».
«وحتى ان كان ذلك . . .».
أنزل جايك ذراعيه الى جانبيه وقد عيل صبره. وقال لها مقاطعاً:
«وحتى ان كان لا شيء! هذا غير مهم الآن! أنا لا أنوي ابداً اضاعة أي وقت الآن بسبب هذا الغبي. سأتولى أمره في وقت لاحق».
وصمت لحظة ثم قال لها بعصبية هادئة:
«يبدو أنك غير مهتمة بمعرفة المكان الذي سنمضي فيه نهاية الاسبوع».
عقدت هيلين جبينها وقد لاحظت أن شجارها مع جايك أنساها سبب عودته قبل الموعد المقرر. وقالت:
«بالطبع، اني مهتمة».
اقترب جايك من سريرها ووقف يوجّه اليها نظرات تحمل الكثير من الغرابة. ثم قال:
«هل أنت حقاً مهتمة؟ اذن اسمعي. اندانا يملك منزلا ريفياً وقد دعانا هو وزوجته لتمضية نهاية الاسبوع معهما».
«اندانا؟ ولكن. . . ولكن أليس هو. . ؟».
«نعم، نعم! انه هو السفير الذي كنت أتحدث معه فور وصولنا الى حفلة الاستقبال تلك الليلة. والآن، هل بدأت تلاحظين مدى أهمية هذا اللقاء وانفعالي لتحقيقه؟».
وضعت هيلين يدها على جبينها وأجابت بصوت خافت:
«أعتقد. . . أعتقد ذلك. متى ينتظران وصولنا؟».
«على العشاء هذه الليلة. ولذا، فأنا افضل البدء برحلتنا حوالي الرابعة بعد الظهر».
«حسناً».
وعضّت هيلين على شفتها بقوة. ففكرة قضاء نهاية الاسبوع في ضيافة سفير وزوجته بمنزلهما الريفي لم تكن سيئة على الاطلاق. ولكنها كانت تتمنى لو أن لديها مزيداً من الوقت لتعدّ نفسها بطريقة أفضل. في الفترة الاخيرة أخذت توجه اليه عدة اسئلة وكأنها تحقق معه او تستجوبه. وهذا امر قد يثير شكوك جايك من انها اصبحت غير مرتاحة في حياتها.
لم يفهم جايك معنى النظرة القلقة والمشككة التي شاهدها في عيني

هيلين، فسألها بحدة وانفعال:
«هل من شيء يزعجك؟ هل أعددت لنفسك ترتيبات أخرى مع كيث؟ هل كنت تفترضين انني لن أعود قبل بداية الاسبوع المقبل؟».
ارتجفت هيلين غضباً وقالت:
«نعم، لديّ ترتيبات أخرى. . .».
وكانت على وشك ابلاغه بدعوة جيفر الى السهرة والعشاء مساء الأحد، ولكن جايك لم ينتظر لسماع بقية الجملة بل انحنى فوقها وأمسك برأسها بين يديه القويتين وصرخ بها وهو يهز ذلك الرأس المسكين بعنف ووحشية:
«وهذا انذار لك يا هيلين! أنا لن أقبل بالمزيد من هذه التفاهات منك! أنا أملكك! أنا أملكك أيتها الغبية. . . اسمياً، على الأقل! واذا كان اتفاقنا لم يعد يرضيك، أو انك بدأت تحنّين لاقامة علاقة فعلية مع رجل، فأنا. . . أنا وحدي سأتولى الاهتمام بذلك! هل تفهمين؟ هل تفهمين؟».
فتحت هيلين عينيها وسألته بصوت خائف:
«ماذا تعني بذلك؟».
انتصب جايك واقفاً وقال لها بشراسة ووجه متجهّم:
«أوه، أنا متأكد من انك تفهمينني تماماً».
شعرت هيلين بانقباض شديد في صدرها وأحسّت بأن تنفّسها اصبح صعباً ومتقطعاً، فصرخت به:
«انك. . . انك تثير اشمئزازي!».
«حقاً! حقاً! أيتها المرتزقة الفاجرة الصغيرة! انك تتجاوزين حدّك برعونة وغباء، وهذا خطر عليك!».
شهقت هيلين بالبكاء وأخفت وجهها بالوسادة. لم تشعر في حياتها ابداً بمثل هذا الاذلال والتحقير! كيف ستتمكن بعد الآن من النظر الى هاتين العينين القاسيتين، وهذا الوجه الفتّاك المدمر! في تلك اللحظة، استدار جايك نحو الباب بهدف الخروج من غرفتها. ولكنه توقف برهة وسحب الغطاء الحريري الملقى فوقها، ثم رماه على الأرض وسار نحو الباب متمهلا ومتحدياً. وقبل خروجه من الغرفة التفت نحوها وقال لها بقساوة بالغة قبل أن يغلق الباب وراءه بعنف:

«منظر امرأة شبه عارية يا هيلين ليس امراً جديداً أو غير مألوف».

مضت بضع ساعات قبل أن تتمكن هيلين من استجماع قوتها وشجاعتها لجرّ نفسها خارج السرير. وكان فطورها لا يزال كما هو، فتلك المجابهة الصباحية مع جايك أفقدتها شهيتها حتى عن قهوة الصباح المعتادة. نزلت الى المطبخ لتعيد ابريق القهوة وأطباق الطعام التي لم تمس. وكانت السيدة لاتيمر آنذاك تعدّ طعام الغداء. ولما لاحظت أن سيدتها لم تتناول فطورها أو تشرب قهوتها سألتها بقلق:

«هل يزعجك شيء يا سيدتي؟».

«لا! لم أكن جائعة! هذا كل ما في الأمر. هل. . . هل قال السيد هوارد عمّا اذا كان سيستيقظ لتناول الغداء؟».

رفعت السيدة لاتيمر حاجبيها وفتحت فمها بدهشة ثم قالت:

«يستيقظ، يا سيدتي؟ السيد هوارد ليس في سريره. لقد خرج من البيت بعد الفطور بقليل».

شعرت هيلين فجأة بأن صداعاً غريباً بدأ يعصر صدغيها، ثم سألت خادمتها:

«ومتى. . . متى كان ذلك؟ أنا. . . أنا شاهدت السيد هوارد بنفسي حوالى الثامنة».

«نعم، يا سيدتي. تناول طعام الصباح في الثامنة والنصف تقريباً ثم غادر البيت وحسبما أعلم، فانه لن يعود للغداء».

«آه! من المؤكد أنني أسأت فهمه هذا الصباح. في أي حال، لا. . . لا تزعجي نفسك باعداد غداء عارم لي يا سيدة لاتيمر. فأنا. . . لا اشعر بأي رغبة على الاطلاق لتناول الطعام».

نظرت اليها السيدة لاتيمر بتشكك ثم بدأت تقول بشيء من التوتر:

«أوه، سيدتي أريد. . .».

استدارت هيلين نحوها بسرعة وقالت:

«نعم؟».

«أرجو. . . أرجو الا أكون قد اخطأت بابلاغ السيد هوارد أنك كنت في الخارج مساء أمس».

واحمرّ وجه الخادمة خجلا ثم تابعت حديثها بتردد وتلعثم:

«كان. . . كان يريد التحدث معك، وكان عليّ ان. . ان اقول شيئاً».

«لا بأس يا سيدة لاتيمر! ذهابي مع السيد ماتريتغ أمس لم يكن سراً بالنسبة الى زوجي».

تنهدت الخادمة بارتياح وقالت:

«كما تريدين يا سيدتي».

خرجت هيلين من المطبخ وتوجهت نحو غرفة الجلوس. تصفحت بقلة اكتراث وشرود ذهن العناوين الرئيسية في صحف الصباح، ثم اشعلت سيكارة، وجلست في احدى الزوايا الهادئة تحاول اراحة اعصابها المشدودة والمتوترة. انها تعرف تماماً انها لم تفهم منه غير ما كان يعنيه، قال بأنه يريد التوجه الى فراشه بمجرد الانتهاء من حديثه معها. فأين هو الآن، ولماذا غادر المنزل؟ هل دعوة اندانا لا تزال قائمة أم أنه ألغاها؟

اطفأت سيكارتها بعصبية وتوجهت الى القاعة حيث رفعت سماعة الهاتف وبدأت تطلب أحد أرقام المقر الرئيسي لمؤسسته في هولبورن، كانت اصابعها ترتجف قليلا وهي تدير القرص، ولكن صوتها كان ثابتاً عندما طلبت من عاملة الهاتف تحويلها الى مكتب السيد هوارد. عرفت مساعدته الخاصة صوتها على الفور وسألتها بتهذيب جم:

«نعم يا سيدة هوارد! هل بامكاني مساعدتك بشيء؟».

رطّبت هيلين شفتيها الجافتين بلسانها ثم قالت بلهجة حاولت قدر الامكان اظهارها عادية وطبيعية:

«أحاول ايجاد زوجي! هل تعرفين ما اذا كان في المبنى الآن؟».

«متأسفة يا سيدة هوارد. كان هنا ولكنه خرج قبل قليل».

«أوه، أوه! شكراً!».

وترددت قليلا ثم سألتها:

«وهل تعرفين أين. . .؟».

وفي تلك اللحظة بالذات، سمعت صوت المفتاح في الباب ودخل جايك فأكملت جملتها بسرعة:

«أوه، لا بأس. ها هو قد وصل الآن. شكراً».

أعادت سماعة الهاتف بيد مرتجفة وواجهت زوجها بتوتر وانزعاج. كان جايك لا يزال مرتدياً ملابس الصباح ذاتها، ولكنه حلق ذقنه وأبدل

قميصه. ولولا ملامح التعب والارهاق التي تبدو حول عينيه، لما تمكن أحد من التكهن بأن هذا الرجل قاد سيارته طوال الليل ثم أمضى بضع ساعات في مكتبه وبين أوراقه الخاصة. انه بلا شك يتمتع بصحة جيدة وقدرة قوية على تحمّل التعب، وربما كان ذلك عائداً الى بنيته الصلبة والى ممارسته رياضات الغولف وكرة المضرب والتجذيف عندما تسمح له الظروف بذلك.

تطلع فيها ببرودة قاسية وسألها:

«ولماذا هذا الذعر والهلع؟ ومع من كنت تتحدثين قبل لحظات؟».

«لم يكن هناك ذعر او هلع. كل ما في الأمر انني كنت أسأل مساعدتك عنك لأنني أريد معرفة ما اذا غيّرت رأيك بالنسبة الى نهاية الاسبوع أم لا!».

«أغيّر رأيي؟ ولماذا يا عزيزتي أغيّر رأيي؟».

تنهدت هيلين وتململت في مكانها وقالت:

«اعتقدت انك... ربما... بعد هذا الصباح... أعني...».

رمقها جايك بنظرة ساخرة ثم ألقى بنفسه على أحد المقاعد متسائلا بهزء مبطّن:

«هل تعنين سوء التفاهم البسيط الذي حدث بيننا؟ ولماذا تؤدي تلك العصبية الخفيفة الى تغيير أي شيء على الاطلاق؟».

«أوه، جايك!».

شعرت هيلين برغبة قوية في توجيه صفعة شديدة الى ذلك الوجه الساخر. انه يتعمّد تسلية نفسه على حساب انفعالها وغضبها... وعدم قدرتها على القيام بأي شيء لمواجهة تهكمه واستخفافه بها. اشعل سيكارة وأخذ يتأمل وجهها المتألم عبر الدخان المتصاعد. وعندما شاهد تلك الانفعالات المتبدلة والمتغيرة على وجهها المعبّر والمنفعل، قال لها بهدوء:

«بربك يا هيلين! لا تأخذي كل شيء بمثل هذه الجدية».

ردّت عليه باستغراب وقد لسعتها نبرته الساخرة:

«ولكني كنت أعتقد أن هذا هو بالضبط ما يجب عليّ القيام به... أن احمل كل ما تقوله على محمل الجدّ!».

«ربما، ربما أنت على حق في هذا المجال. في أي حال، أعتقد اننا أنهينا

الموضوع بطريقة مرضية».

صرخت به هيلين غاضبة:

«انهيته أنت!».

«نعم، هذا ما قلته».

«ولكني أنا لم أنهه! اسمع يا جايك! لا أريد البدء بشجار جديد معك، ولكنني أرفض معاملتي كطفل أبله معتوه! أنا امرأة! امرأة متزوجة منك! نعم، أنا آكل من طعامك وأنفق من مالك! ولكن حتى مدبرة المنزل لها بعض الحقوق!».

استلقى جايك في مقعده متكاسلا وقد أغمض عينيه ورفع يده الى جبينه وكأنه يبحث عن جواب أو رد على تلك الانتفاضة والفورة. وفجأة شعرت هيلين بميل قوي غير متوقع نحوه. أزعجتها مشاهدته على هذه الحال... مغمض العينين بسبب التعب والارهاق ومعرّضاً لمزيد من الهجمات التي يصعب صدّها. أزعجها ذلك بطريقة لم تشعر بها من قبل. كان من الصعب جداً عليها ان تتذكر في تلك الأونة انه في الحقيقة يختلف كثيراً عما تصوره هي الآن لنفسها! ولاحظت بمرارة انها تمنحه عطفاً لم يطلبه ولم يعط مثله. لا، انه ليس حساساً أو سريع التأثر بالانتقاد، وهي مجنونة وغبية لأنها تخيلته هكذا لبضع لحظات!

حرّك جايك رأسه بهدوء من جانب الى آخر، ثم قال بلهجة طبيعية عادية:

«حسناً. لن نجادل بصدد هذا الموضوع بعد الآن».

كانت تتوقع جواباً أفضل من ذلك، جواباً يشفي غليلها ولو قليلا. لقد تجنّب النقطة الحساسة بذكاء ومهارة. ولكنها شعرت فجأة بأن قلبها لا يساعدها على اثارته مرة اخرى. وعلى العكس من ذلك، فقد اجتاحتها رغماً عنها موجة من الندم والأسف العميق لأنها احسّت بأن تصرفها الخاطىء، حرمه النوم منذ اكثر من أربع وعشرين ساعة. وفيما هي غارقة في تفكيرها لاحظت أن جايك غارق في نومه. حدّقت به بعض الوقت ثم استدارت لتغادر الغرفة، الا ان شعوراً ما اوقفها وحملها على التطلع نحوه مرة اخرى. انها لم تشاهد جايك نائماً من قبل.

رباه! شهقت بصمت وقد أدهشها الفارق الكبير في ملامح جايك عندما

يكون نائماً. بدا الى حد ما أصغر سناً وأكثر شباباً ورقة. . . بدا وكأن الراحة بعد العناء الطويل أضفت على وجهه القاسي مسحة من الحنان والهدوء! تأملته طويلا بدون أن تعرف سبب وقوفها أمامه وتأملها له بمثل هذا الاهتمام المتزايد! شعرت برغبة في فك ربطة عنقه وزر طوق قميصه، ولكنها خافت أن توقظه. . . وبالتالي أن يعرف ماذا كانت تفعل. انها لم تلمسه من قبل كما انه هو لم يلمسها في السابق. . . باستثناء تلك المرات القليلة التي يربط لها فيها عقداً او يساعدها على ارتداء معطف! لم تفعل أي شيء على الاطلاق طوال السنوات الثلاث الماضية يضطرها للمسه، ولكنها احست الآن بأنها تريد ذلك. . . وتريده بقوة!

ارتعش جسمها وكأن قوة كهربائية سرت في عروقها. وتمنّت في تلك اللحظة لو أنها تعرف عدة امور عنه. . . كرجل! لو ان اصابع يديها تغرز في شعره الكثيف. . . او ان يديها تداعبان منكبيه العريضين. . . او. . . !

انتبهت لنفسها وحدّت من انجرافها في تلك الأفكار، وتذكّرت انها لم تفكر بمثل هذه الطريقة وهذه الرغبة الجامحة مع أي رجل آخر. ولكن، لماذا أطلقت لمشاعرها العنان؟ انه رجل يسعى وراء أي شيء يريده ويبتغيه بقسوة وبدون شفقة او رحمة، متخطياً حدود اللياقة المتعارف عليها ومستهتراً بالكثير من القيم الانسانية التي قد تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق اهدافه! ومع ذلك، فها هو الآن قادر على اثارة مشاعرها وغرائزها في وقت يجب ان تكرهه لعنجهيته واستبداده وتعاليه.

كتمت دهشتها وخرجت مسرعة من تلك الغرفة. التعاطف شيء. . . والبلاهة شيء آخر. ان تمنحه قليلا من التعاطف فهذا أمر مقبول الى حد ما، اما ان تسمح لمثل تلك الأفكار السخيفة بايجاد جذور عميقة لها في رأسها فهو الجنون بعينه. وابتسمت وهي تعبر القاعة متجهة الى غرفتها، اذ تخيلت مدى الترفيه والتسلية. . . وحتى السخرية لدى جايك لو انه يعرف بماذا كانت تفكر! فمهما بلغت حدة غضبه من امكانية تورطها مع كيث، فانه سيظل يعتبرها باردة لا بل متحجرة عاطفياً وشعورياً.

جايك لا يصدق أن لديها مشاعر قوية أو ان بامكانها التفاعل والتأثر سلباً او ايجاباً مع الاحداث المحزنة او المفرحة. . . باستثناء الفترة التي مات فيها والدها. كان موجوداً آنذاك، ويعرف آخرين في مجموعتها تصادقهم

منذ سنوات عديدة. ومن المؤكد ان بعضهم أخبره بأنها لا تتحمل تدليلا جدياً او اي نوع آخر من المغازلة الحقيقية والمثيرة. ويحتمل ان يكون هذا احد الأسباب الرئيسية لاختياره اياها زوجة له. فكل شيء يمتلكه جايك هوارد يجب ان يكون كاملا وبحالة ممتازة.

وقفت امام المرآة في غرفتها وأخذت تتأمل نفسها بدقة وتمعن. هل حقاً ينظر اليها هكذا؟ وهل فعلا يعتبرها كقطعة جليد؟ وهل هي فعلا من هذا النوع من النساء؟ أزاحت وجهها عن المرآة بعصبية واشمئزاز. فحتى ان كانت باردة المشاعر والعواطف، هل يهم؟ انها زوجة جايك هوارد. . . وهو من اولئك الرجال الذين لا يتخلون عن أي من ممتلكاتهم!

بعد نصف ساعة تقريباً، وفيما كانت هيلين مستلقية على سريرها، سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. فتحت الباب فشاهدت السيدة لاتيمر تحمل لها طعام الغداء.

«احضرت لك الطعام يا سيدتي. السيد هوارد نائم على مقعد في غرفة الجلوس وتصورت انك لا تريدينني ان أوقظه. طبعاً ان كنت راغبة في تناول الطعام في غرفة. . .».

«لا بأس على الاطلاق. شكراً يا سيدة لاتيمر».

ثم ابتسمت وتابعت حديثها بهدوء:

«في الحقيقة كنت على وشك ابلاغك بعدم ايقاظه او ازعاجه. انه مرهق جداً».

«نعم يا سيدتي. هل هناك أي شيء آخر تريده السيدة؟».

«لا، هذا يكفي ويزيد. شكراً».

حيّتها السيدة لاتيمر بتهذيب وغادرت الغرفة وهي تغلق الباب وراءها. وبعد ذهابها، تنهّدت هيلين ونظرت الى ساعتها فلاحظت ان الوقت تخطى الواحدة بقليل. خلال فترة قصيرة يجب ان تبدأ باعداد الثياب والحاجيات التي ستحتاج اليها اثناء نهاية الاسبوع. عندما يستيقظ جايك فانه يتوقع ان يجدها مستعدة وجاهزة. أما اغراضه هو فسوف تتولى اعدادها وتوضيبها السيدة لاتيمر التي ترعاه كأم وليس كمدبرة منزل، والتي تصل أحيانا في رعايتها الى حد الازعاج.

فتحت هيلين خزانة الحائط وألقت نظرة فاحصة على تلك المجموعة

الضخمة من الثياب الأنيقة والمتنوعة. كيف ستكون نهاية الاسبوع هذه يا ترى؟ أشخاص عديدون يصفون منازلهم الريفية بأنها عادية جداً في حين انها تكون اشبه بالقصور من حيث الترف والرفاهية. وتذكّرت تلك المرات القليلة التي أمضتها بضيافة جايلز وجنيفر عندما يكون جايك مسافراً، وكيف ان منزلها الريفي ينافس بيتهما في لندن في حجمه وتجهيزاته الحديثة وأناقة أثاثه. جايك لم يخبرها الكثير عن السفير اندانا وزوجته، فماذا ستختار من الثياب؟ هل يملكان منزلاً فخماً في الأرياف ام مكاناً صغيراً ينسيها المدينة وترفها؟ تنهدت مرة اخرى وشعرت ان الحيرة قد تعطل أفكارها وتمنعها من اتخاذ القرار الصحيح، ما لم تتحرك فوراً وتختار الثياب المناسبة. بالطبع، لم تكن لديها اي رغبة في طلب النصح من جايك، اذ ان من شأن ذلك على الأرجح ان يخلق جدلاً هي بغنى عنه تماما. لذلك قررت فجأة ان تأخذ انواعاً مختلفة من الثياب تناسب مختلف الاحتمالات والمناسبات.

عادت السيدة لاتيمر لتأخذ أطباق الطعام فوجدتها كما كانت تقريباً. عقدت جبينها عندما شاهدت هيلين تضع احد فساتين السهرة في الحقيبة الجلدية الكبيرة وقالت لها بشيء من الاستغراب:

«كان بامكاني ان اقوم بهذه المهمة عنك يا سيدتي. لو وضعت ما سوف تحتاجين اليه على السرير لكنت اكثر من مستعدة ومسرورة لتوضيبه في الحقيبة».

نظرت اليها هيلين مبتسمة وقالت:

«شكراً لك يا سيدة لاتيمر. ولكني، كما ترين، انتهيت تقريباً من هذه المهمة. هل أعددت حقيبة السيد هوارد؟».

«نعم يا سيدتي. أعددتها في الصباح بعدما أبلغني انكما ستمضيان نهاية الاسبوع خارج البيت».

«حسناً. هل استيقظ السيد هوارد؟».

«لا ادري يا سيدتي، اذ انني لم أمر بغرفة الجلوس. اعتقد انه سيصعد قريباً ليستحم ويرتدي ثيابه. هل تريدين مني أن أوقظه؟».

«لا، ليس ذلك ضرورياً. سأوقظ زوجي بنفسي ان كان لا يزال نائماً».

ثم هزت كتفيها وقالت وكأنها تشكك في نفسها:

«أرجو ان أكون قد وضعت في هذه الحقيبة كل ما قد احتاجه لهذه الرحلة!».

ابتسمت السيدة لاتيمر وعلقت على ذلك التساؤل بالقول:

«انها رحلة ليومين فقط يا سيدتي! وكذلك، فاني اشك كثيراً في انهم يحبون الرسميات الى هذا الحد في لاندراتوغ!».

«لاندراتوغ!».

قالتها هيلين بدهشة واستغراب بالغين، ثم سألتها:

«أليست لاندراتوغ في مقاطعة وايلز؟».

«نعم يا سيدتي».

«هل تعنين أن المنزل الريفي الذي سنمضي فيه عطلة الاسبوع... موجود في وايلز؟».

«نعم يا سيدتي. ألم يخبرك السيد هوارد بذلك؟».

احمرّ وجه هيلين وقالت بتلعثم:

«لا... لا، لم يخبرني ذلك بالضبط. لم... لم اسأله عن المكان... بالتحديد. كنت أظن... انه في... مكان آخر».

وهزّت برأسها وعلامات الدهشة لا تزال بادية على وجهها، ثم قالت وكأنها تحدث نفسها:

«لاندراتوغ! لم أعرف أننا سنبتعد الى هذا الحد».

«انها ليست بعيدة جداً يا سيدتي. اعتقد أنكما ستستخدمان الطريق السريع. لن تجدا طرقات ملتوية وكثيرة التعرّجات قبل دخولكما مقاطعة وايلز نفسها. طوم وانا أمضينا هناك عطلة جميلة. انها منطقة رائعة وأخاذة!».

هزّت هيلين رأسها وقالت:

«ربما في الصيف، يا سيدة لاتيمر. نحن الآن في الخريف. انظري الى المطر!».

كان الطقس ماطراً والضباب كثيفاً الى حدّ ما، وبدا الجو حزيناً ولا يعد بعطلة ممتعة.

ولكن السيدة لاتيمر كانت تنظر الى الموضوع من زاوية مختلفة، اذ قالت:

«ولو كنت مكانك لما قلقت ابدا. السيد هوارد سائق ماهر وباذن الله لن تواجها اي مصاعب على الاطلاق».

استحمّت هيلين وارتدت ثيابها ثم نزلت الى قاعة الجلوس. كانت الساعة آنذاك تشير الى الثالثة والربع. وكانت السيدة لاتيمر تضع ابريق الشاي على منضدة صغيرة قرب المقعد المثير الذي استخدمه جايك خلال الساعات القليلة الماضية. اقتربت السيدة لاتيمر من هيلين وأخذت منها معطفها، ثم قالت وهي تعلقه امام الباب:

«طلب مني السيد هوارد اعداد ابريق من الشاي لانك ربما أحببت شرب القليل منه قبل ذهابكما».

«وانه دليل اهتمام وعناية من جانبه».

جلست هيلين وصبّت لنفسها فنجاناً من ذلك الشاي الفاخر. لا بد من الاعتراف بان فكرته لاقت ترحيباً في نفسها، فقليل من الشاي الآن ينعشها الى حدّ كبير.

امضت فترة قصيرة تتأمل الاثاث الجميل الذي اختارت معظمه بنفسها والذي أنفق عليه جايك أموالاً طائلة. وفيما كانت تصب الشاي مرة ثانية، دخل جايك الغرفة وكان مرتدياً ثياباً داكنة بعض الشيء مما اضفى المزيد من الاسمرار على لون بشرته. تأملته هيلين بتمعن قائلة لنفسها انه ربما تجري في عروقه دماء اسبانية او ايطالية. وحملها مجرّد تصوّر ذلك على الابتسام. فوالدته ستشعر بالتأكيد باهانة كبيرة فيما لو عرفت ما تفكّر به هيلين في هذه اللحظة بالذات. لأنها شديدة الفخر والاعتزاز بعراقة انتمائها وانتماء زوجها الراحل الى مقاطعة يوركشاير.

لاحظ جايك الابتسامة الخفيفة في عيني هيلين، فعقد جبينه فجأة وسألها بحدّة واستغراب:

«ماذا يضحكك الآن يا هيلين؟».

«لا شيء، لا شيء!. هل انت مستعد للذهاب الآن ام انك تريد قليلاً من الشاي؟».

تردد جايك قليلاً، ثم ارتدى سترته واجابها بايجاز:

«انا جاهز. اين حقيبتك؟».

وقفت هيلين وردّت عليه باختصار مماثل مشدّدة على الكلمة الاولى:

«حقائبي فوق!».

«حقائبك!».

قالها باستغراب وتململ، ثم اضاف:

«بحق السماء، يا هيلين! وماذا اخترت لنفسك ليستوجب اكثر من حقيبة؟».

حركت هيلين ذراعيها كطفلة بريئة تدافع عن رغبتها في حمل اكبر عدد من العابها مع انها لن تذهب الا في نزهة قصيرة، وقالت:

«بما انك لم تخبرني اي شيء عن السفير اندانا وزوجته، او حتى ان منزلها الريفي موجود في وايلز، او اي نوع من الاستقبال ستجده هناك، فقد اضطررت لمواجهة كافة الاحتمالات».

«ولكن، لا بد انّ السيدة لاتيمر شرحت لك الوضع بكامله!».

هزّت برأسها نفياً، فتنهد وقال:

«اوه، حسناً! هذه نقطة لصالحك! سأحضر الحقائب، وارجو ان يكون صندوق السيارة كافياً».

«شكراً لك».

ولكنه لم يسمعها، اذ انه توجه مسرعاً وصعد الدرج قفزاً وكأنه شاب في العشرين من عمره.

وبعد لحظات عاد وهو يحمل الحقيبتين الكبيرتين في يديه ويتأبط الثالثة الأصغر حجماً والأقل وزناً. وكانت هيلين قد ارتدت معطفها ووقفت تنتظره قرب الباب. وفي تلك الآونة، دخلت السيدة لاتيمر وقالت له بلهجة تجمع بين الانزعاج والاعتذار:

«آه يا سيد هوارد! الم يكن بامكان طوم ان يحضر حقائب السيدة! انه جالس في المطبخ يشرب الشاي!».

ابتسم جايك وقال لها بلهجة حنونة يحتفظ بها للاشخاص الذين يخدمونه باخلاص وتفان:

«لا بأس يا سيدة لاتيمر، فانا ما زلت شاباً قوي الجسم!».

ثم تطلّع بهيلين فجأة وسألها:

«هل من شيء آخر؟».

«لا، لا اعتقد ذلك. . . اوه! نعم! الدعوة الى العشاء مساء الأحد!

يجب ان الغيها».

كان يوماً عصيباً ومليئاً بالشجار والمشاكسات فنسيت دعوة جنيفر. تغيّرت ملامح جايك فجأة وسألها ببرودة اعصاب مفتعلة:

«ألديك موعد عشاء مساء الأحد؟».

ارادت هيلين ان تسخر منه في تلك اللحظة وان تصرخ بوجهه قائلة ان تلك الدعوة موجّهة لهما معاً من جايلز وجنيفر، ولكنها تعمّدت اغاظته اذ اجابت:

«نعم، لدي موعد يجب ان الغيه!».

سار نحو الباب بانفعال وقال لها بعصبية ظاهرة قبل ان يخرج من الباب ويغلقه وراءه بعنف:

«اذن، الغه!».

نظرت اليها السيدة لاتيمر باستغراب واضح، الّا ان هيلين لم تكن في مزاج للشرح والتفسير.

لا بل العكس من ذلك تماماً، اذ شعرت برغبة في اغاظة هذه الخادمة التي تتجسس عليها. فقالت لها:

«سأجري اتصالاً هاتفياً الآن يا سيدة لاتيمر. بامكانك الذهاب! ثم... اعتقد انك تعرفين اننا نتوقع العودة مساء الأحد».

«نعم يا سيدتي! اوه... عن اذنك يا سيدتي!».

هزّت لها هيلين برأسها علامة الموافقة ووقفت تنتظر بتململ وصولها الى الباب واغلاقه وراءها. ثم رفعت سماعة الهاتف واتصلت بجنيفر لتخبرها بما حدث وتعتذر لها عن عدم قدرتها على تلبية الدعوة. وبعد ان اعربت جنيفر عن اسفها لذلك، قالت لها بسرور:

«ولكن يا حبيبتي، هذا تحوّل جديد بالنسبة اليه، أليس كذلك؟ اعني، انها ستكون المرة الأولى حسبما اعرف التي يأخذك فيها خارج لندن!».

«هذا صحيح. ولكن من الواضح ان هناك شيئاً ما وانه، على ما افترض، يريد التظاهر بانه رجل سعيد في زواجه».

سألتها جنيفر بلهجة يغلب عليها التشاؤم:

«وهل تعتقدين انك سوف تستمتعين بهذه العطلة القصيرة؟ اعني يا عزيزتي، ان تمضية يومين وليلتين في بيت ريفي صغير في وايلز... على بعد

مئات الكيلومترات من المدينة...! اوه، انها لعطلة تعيسة!».

ردّت عليها هيلين بلطف قائلة ان الابتعاد عن مباهج الحياة العصرية احياناً امر مريح للاعصاب. ولكن جنيفر أصرّت على رأيها، قائلة:

«ما اعنيه تماماً هو انّ هذه العطلة قد تبدو جذابة ومغرية بالنسبة الى زوجين عاديين! اما بالنسبة اليكما... انت وجايك! اعني انه بسبب... سوء تصرفاته يجب توقّع يومين مزعجين للغاية! فعلى الأرجح سيتركك في رعاية المضيفة في حين انه والسفير يمضيان طوال وقتهما يتحدثان بالصفقات والمشاريع التجارية. وان لم يفعلا ذلك، فانهما قد يختفيا في احد النوادي الليلية... هذا اذا كانت في تلك البقعة النائية مرابع ما!».

ثم تثاءبت واعتذرت بسرعة قبل ان تتابع انتقادها لتلك الرحلة:

«في الحقيقة يا عزيزتي، لا ادري كيف وافقت اصلاً على مرافقته في هذه الرحلة! دعيه يقوم بدعاياته وعلاقاته العامة بمفرده!».

انتبهت هيلين الى أنّ جايك اصبح وراء الباب وعلى وشك ان يفتحه، فسارعت الى انهاء حديثها مع جنيفر قائلة:

«يجب ان اذهب الآن. سأتصل بك عندما نعود».

تنهّدت جنيفر بانزعاج وقالت:

«اوه، حسناً! ولكن لا تلوميني يا هيلين ان عدت مصابة بزكام، او بوجع رأس، او بالاثنين معاً!».

«لن يحدث ذلك!».

واقفلت الخط فيما كان جايك ينظر اليها متضايقاً ويقول:

«والآن؟ هل انت جاهزة؟».

رفعت رأسها متحدّية وقالت:

«طبعاً».

انها لن تسمح له بارهابها بمثل هذا الاسلوب. وترفض ان تشرح له ما حدث بتلعثم وتردد كطفلة خائفة، لمجرد انه يتوقع منها ايضاحات او تفسيرات مطولة! دخلت السيارة بدون ان تقول شيئاً. هل صحيح، كما قالت جنيفر، انّ دعوة جايك لها لمرافقته في تلك الرحلة هي تحوّل جديد في طريقة حياته وتصرّفه معها! ام انه، كما قالت هي نفسها، بحاجة لاثبات جدّيته ورصانته امام ذلك السفير الذي يحب الروح العائلية ويحترم التقاليد

البيتية والزواج السعيد! لماذا التكهن مسبقاً بما سيحدث؟ ولماذا لا ننتظر وصولنا الى وايلز لنعرف بالضبط اهدافه ودوافعه؟

مضت ساعة كاملة كان جايك خلالها يركز اهتمامه على قيادة سيارته، وربما كان يفكر بما سيبحثه مع السفير اندانا. ولذلك فانه لم يلتفت مرة واحدة نحو هيلين كما انه لم يحدثها بشيء او يتفوه بكلمة واحدة طوال تلك الفترة. عزت هيلين نفسها بان السبب الرئيسي لصمته المطبق هو المطر الغزير الذي كان يهطل آنذاك، بالاضافة الى الازدحام الخانق في حركة السير نتيجة لمصادفة خروجهما في موعد عودة الموظفين والعمال الى بيوتهم. وفعلاً، فبمجرد وصولهما الى الطريق الواسع وشبه المستقيم استراح جايك في مقعده واشعل سيكارة ثم سأل زوجته:

«وماذا قال ماتربنغ؟».

قررت هيلين ان تغيظه قليلاً، فاصطنعت الدهشة مكتفية بترداد الاسم كالصدى:

«ماتربنغ؟».

شدّ جايك بقوة على مقود السيارة وكأنه يريد تحطيمه بدلاً من رأسها. ثم تغيرت لهجته القاسية فجأة وقال لها بصوت هادىء:

«لا تحاولي استخدام ذكائك معي يا هيلين! يجب ان تعرفي بعد كل هذه المدة ان مثل هذا الاسلوب لا ينجح. سألتك ماذا قال ماتربنغ عندما اضطررت لابلاغه بانك غير قادرة على تناول العشاء معه مساء الأحد».

هزت كتفيها بانزعاج وسألته باستغراب:

«أهذا ما تعنيه؟».

«نعم، هذا ما اعنيه بالضبط»

«لم يقل شيئاً».

«هيلين، اني انذرك...».

تطلعت هيلين نحوه بعصبية بالغة وعينين يكاد الشرر يتطاير منهما وقاطعته صارخة:

«بحق السماء، يا جايك! توقف عن تمثيل دور الوالد القاسي! لمعلوماتك ايها السيد، لم يكن لدي موعد عشاء مع كيث مساء الأحد!».

«وهل تتوقعين مني تصديقك؟».

«كما تشاء!».

عادت هيلين تركز اهتمامها ونظراتها على الطريق الممتد امامها مسافات شاسعة. وكانت تغلي غضباً لأنها سمحت له بان يغيظها الى الحد الذي اضطرت فيه الى الدفاع عن نفسها. وعاد جايك يسأل:

«اذن مع من كنت تتحدثين في الهاتف؟».

«اوه، بحق السماء! ولماذا اخبرك مع من كنت اتحدث؟ ماذا يهم؟ انا لا اسألك عن نشاطاتك وتحركاتك! فلماذا اذن تريد معرفة كل حركة اقوم بها او كل كلمة اقولها؟».

فجأة تحولت شاحنة ضخمة الى الخط السريع امام سيارتهما. ضغط جايك على الفرامل وحول بيد سرعة المحرك من الدرجة الخامسة الى الثالثة، في حين تولت اليد الاخرى شدّ المقود بعيداً عن الشاحنة. أدى ذلك الحادث المفاجىء الى تخفيف مؤقت في حدة التوتر بينهما. اذ كان لا بد لهيلين من ان تثني على حسن قيادته وسرعة خاطره. وقالت لنفسها انّ طريقته في قيادة السيارات يمكن ان تكون ممتعة جداً لو انّ ظروفهما كانت مختلفة بعض الشيء! عطلة نهاية الاسبوع ذاتها يمكن ان تكون رائعة لو لم تكن علاقتهما متوترة الى هذا الحد! وتطلعت بجايك وسألت نفسها كم من فتاة تكون مستعدة للقيام بأي شيء والتضحية بالغالي والرخيص لتحل مكانها في تلك الآونة! لا، انها تنظر الى الموضوع من زاوية سطحية فقط! كذلك فقد لاحظت انها تجري تقييماً جسدياً بحتاً لزوجها الجالس قربها.

حدّقت في زجاج السيارة الامامي شاردة الذهن ومشتتة الأفكار.

كانت السيارة منطلقة بسرعة كبيرة والصمت مخيّم في داخلها. وكان كل منهما غارقاً في افكاره وتخيّلاته. وفجأة، وضع جايك اشارة وخفّف من سرعة السيارة قبل ان يتحوّل بها الى طريق فرعي يؤدي الى فندق ضخم تتلألأ اضواء غرفه وبعض شرفاته بشكل حالم ودافىء. اوقف جايك السيارة قرب مدخل الفندق واطفأ محركها، ثم فكّ حزام الأمان قائلاً:

«هذا افضل مكان الآن لتناول العشاء. اعرف ان الوقت مبكر وان الساعة لم تتجاوز السادسة والنصف. الا انني اعتقدت اننا بهذه الخطوة سنوفّر على انفسنا عناء التوقف في وقت لاحق على طرقات لا نعرفها وفي مناطق نجهلها».

هزّت هيلين برأسها موافقة وفكّت بدورها حزام الأمان ونزلت من السيارة وهي تقول لنفسها انها فعلاً فكرة صائبة. اولى نتائجها الايجابية طبعاً كانت الخروج من السيارة والسير قليلاً لإراحة الرجلين، وبالتالي لتنشق قليل من الهواء المنعش. دخلا الفندق ووضعا معطفيهما في المدخل وتوجّها الى قاعة الطعام. ومع ان الوقت لا يزال مبكراً الا ان عدداً كبيراً من الاشخاص كانوا يتمتعون بالعشاء اللذيذ والجو الحالم. وبمجرد توجههما الى الطاولة التي خصّصت لهما، تحوّلت اليهما معظم الانظار وقالت هيلين لنفسها بسخرية انّ غرور جايك عائد في معظمه الى هذا الاهتمام القوي الذي يحظى به في اي مكان وزمان. وكادت الا تلاحظ ان نظرات الرجال الموجودين في القاعة لم تجذبها شخصية جايك... بل جمالها هي... جمال وجهها الهادىء، وجمال قدها الرشيق.

كان جايك يبدو كئيباً طوال الفترة التي امضياها في تناول العشاء، لم يتحدث الا نادراً، واكتفى ببضع كلمات يردّدها بايجاز كلما علقت هيلين بشيء عن الطعام، او الفندق، او المطر. وشعرت بان عليها ان تقول شيئاً بين الفترة والاخرى كيلا يظن الآخرون المهتمون بهما انهما متخاصمان ولا يتكلمان مع بعضهما. واخيراً، وعندما كانا يشربان القهوة، تطلّعت به هيلين فجأة وقالت له بكثير من الحدة:

«الشخص الذي كنت اتحدّث معه على الهاتف قبل مغادرتنا البيت ليس الاّ جنيفر. انها هي التي دعتنا سوية الى العشاء مساء الأحد!».

لم يتفوّه جايك بشيء، فعيل صبرها وسألته مستغربة:

«هل سمعت ما قلته لك؟».

رفع رأسه قليلا وقال لها بهدوء مزعج:

«نعم، سمعتك يا هيلين!».

«حسناً! اليس لديك ما تقوله؟».

«وماذا تريدينني ان اقول؟».

ضغطت هيلين بشدة على شفتيها عندما لاحظت انها على وشك البدء بالبكاء. يا للسخرية فلأنه قرر الجلوس عابساً ومقطب الجبين هكذا بسبب جدالهما، اضطرّت هي الى التفسير والتوضيح مرة اخرى... ومنحته بالتالي فرصة جديدة لاذلالها وتحقيرها. وبدون ان ترد على سؤاله، وقفت

فجأة وخرجت من قاعة الطعام. اخذت معطفها والقته على كتفيها بلا اكتراث وخرجت الى العراء غير آبهة بالهواء البارد الذي كان يصفعها والمطر الغزير الذي كان يبللها بلا شفقة او رحمة. سارت بسرعة نحو السيارة ولكنها بالطبع وجدتها مقفلة. زررت معطفها ورفعت ياقته ووضعت يديها في جيبي المعطف، واخذت تعض بقوة لمنع شفتيها من الارتجاف وأسنانها من الاصطكاك. لم تشعر طوال حياتها الفتية بمثل هذه التعاسة.

سمعت صوت الباب، يفتح ويغلق، وشاهدت جايك يسير نحوها بعصبية ظاهرة ويوجه اليها نظرات حادّة وقاسية، وخاصة بعد ان رأى شعرها المبتل ووضعها المزري. لم يقل شيئاً، بل فتح باب السيارة بسرعة واخذها بذراعها ودفعها بقوة الى الداخل. اغلق الباب بعنف وكأنه يريد تحطيمه ثم توجه الى الناحية الثانية وفتح بابه وجلس وراء المقود. وفجأة استدار نحوها، وكانت هيلين تجلس صامتة بدون حراك تنتظر الغضب الصاعق. ولكن قبل ان يصل توتّرها الى اشدّه، سمعته يقول لها بصوت خافت ومتردد:

«حسناً، حسناً يا هيلين! انا آسف!».

تطلّعت به هيلين وقد اصابتها الدهشة واتسعت عيناها استغراباً. وردّدت كلماته كالصدى وهي لا تكاد تصدّق ما سمعت اذناها:

«انت... انت آسف؟».

«نعم! نعم! اللعنة يا هيلين، ماذا تريدين مني ان اقول اكثر من ذلك؟ حسناً! لقد تصرّفت معك بقساوة ووحشية، ولم اصدقك. اما الآن فاني اصدقك».

«أوه، جايك!».

وانهمرت دموعها حارة على خديها. ولاحظت انها تبكي مع انها حاولت جاهدة اخفاء ذلك عنه بوضع يديها على خديها وكأنها تفكر. فقال لها باصرار وهو يوجه اليها نظرات ذات معان كثيرة:

«ويحك يا هيلين! قلت لك انني متأسف. لا تبكي، بحق السماء، لا تبكي! انا لا استحق هذا البكاء، صدّقيني!».

حركت رأسها ببطء من صوب الى آخر وقالت له متمتمة ويدها تشدّ بقوة على فمها:

«دعني، ارجوك! سأشعر بالتحسن بعد لحظات».

«كفى يا هيلين! كفى يا امرأة!».

وضمّها نحوه واضعاً رأسها على صدره ومربّتاً بيده الاخرى على رأسها بحنان ظاهر. كانت تلك المرة الاولى منذ زواجها التي تقترب فيها منه الى هذا الحد. ولذا ظلّت على تلك الحالة عدة دقائق، مرتاحة البال، وسعيدة بذلك الشعور من الأمان والطمأنينة الذي أوحاه لها قربه منه على هذا الشكل. وعندما بدأت دموعها تجف تدريجاً، اخذت هيلين تشعر بأحاسيس مثيرة اخرى خافت ان تقلقها وتقضّ مضجعها في وقت لاحق. اعجبها دفء جسده وقوة عضلاته وطيب الرائحة التي تفوح من جسمه! ومع انها شعرت انه لا بد من الابتعاد عنه قليلاً لتجفيف دموعها، الا انها لم تكن راغبة في ذلك على الاطلاق. كانت تريد البقاء هكذا دهراً... ولكنه افقدها المبادرة. فقد ازاحها عنه برقة واعادها بحنان الى وضعها السابق في المقعد المجاور. ثم اطفأ النور الداخلي للسيارة واشعل سيكارة قبل ان يدير المحرك وينطلق بهدوء وروية.

لم يقل شيئاً بعد ذلك. وكانت هيلين مسترخية في مقعدها ترتجف! لقد لاحظت فجأة، وللمرة الاولى في حياتها، انها لا تجد لمسة الرجل امراً مستهجناً او غير مرغوب فيه.



٥ - مشروع أنصاف ابتسامات

منذ مغادرتهما ذلك الفندق وجايك يلتزم الصمت التام تقريباً الا عندما يطلب منها دراسة الخريطة للتأكد من انهما لا يزالان على الطريق الصحيح. هل ندم يا ترى على تلك الرقة التي اظهرها امام الفندق! ملامحه القوية الشرسة لم يعد فيها أي اثر لذلك الحنان الذي شاهدته عندما اعتذر منها وضمها الى صدره! ولكن، أليس ممكناً ايضاً انه يركز كل اهتمامه وتفكيره على الطرقات الصعبة وقيادة سيارته القوية؟

تمنت هيلين ان يصلا في تلك اللحظة الى وجهتهما... لتخرج بسرعة من ذلك السجن الصغير المظلم الى مكان اوسع وأفسح وأكثر اضاءة ونوراً... لتبتعد مسافة اكبر عن جايك لأن قربه منها الى هذا الحد يزعجها ويضايقها ويثيرها... لتبتعد عن مشاعر الاغراء والاثارة التي بدأت تلاحقها وتضج في رأسها وقلبها وجسمها كلما تطلعت بزوجها! كل شيء فيه يثيرها! شعره الأسود الحالم... جفناه... كتفاه... وحتى الخطوط القاسية في وجهه وملامحه! هذه الأمور والتفاصيل كلها كانت بالنسبة اليها في السابق غير جديرة بالاهتمام... لا بل مزعجة وتسبب القرف. وشعرت بأنها تحتقر نفسها لأنها سمحت لعاطفتها ورغبتها بالوصول الى هذا الحد. انه قبل ليلتين فقط...

ارتجف جسمها بشكل عفوي فالتفت نحوها وسألها:

«هل تشعرين بالبرد»؟

هزت هيلين رأسها وقالت وكأنها تمازحه:

«شاهدت شبحاً! هل تظن اننا لا نزال بعيدين عن وجهتنا؟».

نظر الى ساعته وقال عاقداً جبينه:

«كنت اعتقد اننا سنتصل في مثل هذا الوقت. هل انت متأكدة من اننا نتبع الطريق الصحيح؟».

استوت هيلين في مقعدها واخرجت الخريطة الملونة ثم انارت الضوء الداخلي القريب منها وقالت، بعد ان تفحصت الخطوط المتعرجة بدقة:

«هذه هي طريق لاندرانوغ بالتأكيد. يجب ان تكون!».

«ارجو ذلك».

قالها بلهجة غير مقتنعة تماماً، ثم قال متأففاً:

«بالله عليهم، لماذا لا يكثرون من هذه الاشارات المعدنية التي تظهر بوضوح اسماء المقاطعات والمدن والقرى والمسافات، وغير ذلك من المعلومات الضرورية للسائق؟ آخر اشارة تدلنا على المكان الذي نوجد فيه الآن كانت قبل عشرين كيلومتراً تقريباً!».

علقت هيلين على سؤاله بهدوء:

«ربما فاتتنا مشاهدة بعض الاشارات نظراً للظلام الدامس وكذلك المطر الذي. . .».

«شكراً! لاحظت ذلك».

اطفأت هيلين النور الداخلي مرة اخرى واسترخت في مقعدها مفسحة المجال مرة اخرى امام الصمت المطبق ليخيم بينهما. وفجأة استوت جالسة واشارت الى الأمام صارخة بحماس:

«أرى اضواء! انظر. . . هناك هل تراها؟».

نظر اليها جايك باستخفاف وقال:

«نعم، اراها. ولكن هذه المنطقة لا تبدو لي كقرية، بل كبضعة منازل متعزلة. . .».

قاطعته بانزعاج:

«يجب ان تكون لاندرانوغ! فالخريطة تظهر. . .».

جاء دوره مقاطعتها فقال متبرماً:

«حسنا ! حسناً!».

وفي هذه الأثناء اصبح بامكانها مشاهدة تلك الأضواء بوضوح، ولكن، كما قال جايك قبل لحظات، كانت الأضواء قليلة ومتقاربة جداً

بحيث لا تدل على وجود قرية او ما شابه. تلعثمت هيلين وقالت:

«ربما ذهب الجميع الى النوم!».

تطلع بها جايك باستخفاف وحدة قائلاً:

«في التاسعة والنصف؟ اني اشك في ذلك قليلاً، الا توافقيني على ذلك؟».

ازعجتها سخريته فقالت له غاضبة:

«ربما كان من الأفضل ان تتولى انت قراءة الخريطة».

«ربما كان ذلك ضرورياً».

ثم ضغط بقدمه على الفرامل وأوقف السيارة الى جانب الطريق وسألها:

«هل ترين ما أرى؟».

كانا الآن على مقربة من تلك البيوت القليلة، وأصبح بامكانها مشاهدة الأشياء بوضوح اكبر. وفجأة اشارت الى احد البيوت قائلة بفرح:

«انظر! هناك اسم على البوابة الخارجية».

تنهد جايك ونظر اليها طويلاً ثم هز رأسه وقال:

«حسناً، حسناً! سأذهب للتحقق من هذا الأسم».

فتح جايك باب السيارة ونزل منها متمهلاً. وما ان شعر بأن قدميه غرقتا في الوحل حتى سمعته يشتم بغضب وعصبية وهو يتوجه نحو ذلك المنزل. ضحكت بصوت خافت لأنها لم تكن تتصور من قبل ان جايك يقبل بالسير في أرض وعرة كهذه تغطيها اوحال بمثل هذه السماكة. وحبست ضحكاتها بسرعة. فمهما كان الأمر، يجب الا يراها جايك مسرورة لازعاجه او فرحة بتعاسته! وتمنت فقط الا يكون غضبه كبيراً عند عودته. الا ان تمنياتها تبخرت بسرعة وحلت محلها خيبة الأمل. فقد عاد وهو يكاد ينفجر غضباً وصعد الى سيارته بدون ان يفكر حتى بتنظيف حذائه قليلاً. ثم سألها وهو ينظر اليها شزراً:

«هل لديك أي فكرة على الاطلاق عما تقوله تلك اللوحة؟ انها تقول. . . آه منك يا هيلين! تقول. . . هنا مزرعة لانغرانوغ! هل تسمعين؟ مزرعة لانغرانوغ!».

أصابتها الحيرة والدهشة وسألته بسذاجة:

«هل تعني ان هذا هو المنزل الريفي الذي نقصده؟».

رفع جايك نظره الى السماء متضايقاً ومنفعلاً، وقال لها باشمئزاز:
«لا! لا اعني ابداً ان هذا هو منزل انداننا الريفي! اعني ان هذا المنزل هو مزرعة لانغرانوغ وليس لاندرانوغ!».

فتحت فمها دهشة واستغرابا واتسعت عيناها حيرة، وسألته بتردد:
«تعني . . . تعني ان هذه . . . هي الطريق الى لانغرانوغ . . . وليس الى لاندرانوغ؟».

نقر جايك باصابعه على مقود السيارة وقد عيل صبره وقال لها بتهكم غاضب:
«اعني . . . اعني! انت التي يجب ان تعرف! الم تكن الخريطة معك وكنت انت مساعد الطيار، او الملاح المسؤول عن توجيه السفينة في المسار الصحيح؟».

سحبت هيلين الخريطة ووضعتها على ركبتيها واخذت تلاحق باصابع مرتجفة الخطوط الصغيرة المتعرجة التي تنطلق من الطريق الرئيسي باتجاه لاندرانوغ. واكتشفت بسرعة انها كانت تتبع خطأ الخطوط المؤدية الى لانغرانوغ. لم تكن تتوقع اسمين متقاربين الى هذا الحد في المنطقة ذاتها! وبما ان الطريق المؤدية الى لانغرانوغ هي الأساسية، فقد أغفلت الخط الفرعي الذي يؤدي الى لاندرانوغ.

كان جايك آنذاك يراقب اصابعها بكثير من الاهتمام . . . والانزعاج. ثم سألها بلهجة طبيعية تقريباً.
«هل ابتعدنا كثيراً عن طريقنا؟».

دلته باصبعها الى مكان الانعطاف وقالت بخجل وحياء:
«حوالى . . . حوالى خمسة وعشرين كيلومتراً».

تنهد جايك واسترخى في مقعده قليلاً ثم اشعل سيكارة وقال لها بهدوء:
«حسناً. سنعود الآن».

قطبت هيلين حاجبيها وقالت له معتذرة:
«أنا . . . أنا آسفة. لم اكن اظن ان ثمة اسمين متقاربين الى هذا الحد».

ابتسم جايك نصف ابتسامة وقال:
«وأنا ايضاً لم اكن اعرف. كذلك فإنه لا يمكنني القاء اللوم كله عليك، لأنني انا ايضاً كنت اقرأ اشارات الطرق».

ردت هيلين الابتسامة بالمثل وشكرته بكلمة واحدة. هز برأسه متضايقاً من الحالة التي وصلا اليها ثم ادار المحرك وضغط على دواسة البنزين الا ان العجلتين الخلفيتين اخذتا تدوران على نفسيهما بدون فائدة. سماكة الوحل كثيفة! حاول الرجوع الى الوراء ولكن السيارة ظلت في مكانها، وغطى الصفير الذي كانت تطلقه العجلتان الغاضبتان على صوت المحرك القوي.

شد باصابعه على المقود صارخاً:
«اوه، يا الهي! كيف سنخرج من هذا المأزق؟».

عضت هيلين على شفتيها بقوة حتى كادت ان تدميها. شعرت أنها هي المذنبة وتمنت لو كان بامكانها القيام بأي شيء لاخراجهما من تلك الورطة.

فتح جايك باب السيارة ونزل منها ليغوص مرة اخرى في ذلك الوحل الكريه. ولكنها هذه المرة لم تضحك، بل كانت متأثرة حزينة. شعرت به يركل العجلة الخلفية بعصبية ثم يعود ليقول لها.
«اجلسي وراء المقود يا هيلين».

اطاعته على الفور وبدون تردد فيما كان يوجه اليها التعليمات الضرورية.
«هل بامكانك تطبيق هذه التعليمات بدقة؟».
«نعم! سأحاول!».

توجه الى مؤخرة السيارة وطلب منها ان تبدأ، فصرخت بلهفة:
«انتظر!».

عاد نحوها وقد اصبح آنذاك كقطعة قماش مبللة، وسألها بتبرم وايجاز:
«ما بك الآن؟».

اشارت الى رجليها وقالت بحياء وأسى:
«المقعد بعيد جداً بالنسبة الي. هل بالامكان سحبه قليلاً الى الأمام؟».

تنهد جايك ولكنه لم يقل شيئاً، بل فتح الباب ودفع المقعد الى الأمام بسرعة وسهولة قائلاً:
«هل هذا يكفي؟».
«شكراً. اعتقد انني الآن على ما يرام».
«حسناً. لننفذ الآن ما اتفقنا عليه قبل قليل. تذكري ان تبدأي عندما اطلب منك ذلك».

عاد الى مؤخرة السيارة ووضع ذراعيه القويتين عليها مستعداً للدفع بكامل قوته. ثم صرخ بها:

«هيا! الآن!».

الا ان السيارة لم تتحرك وسمعته يناديها بأعلى صوته:

«لا بأس، لا بأس! اوقفي المحرك!».

اخرجت هيلين رأسها من النافذة فشاهدت جايك يتقدم نحوها وقد غطاه الوحل من رأسه حتى اخمص قدميه. لم تتمالك نفسها من الضحك بمثل الطريقة الغبية التي تمكنت في المرة الأولى من كبتها. وفجأة شعرت بالاشمئزاز من نفسها وبالخوف من جايك. فسارعت الى وضع يدها على فمها. الا ان السيف سبق العذل... فقد شاهد ضحكتها! اقترب منها ونظر اليها طويلاً، ثم سألها بلهجة تنذر بعواقب الأمور:

«هل تجدين الأمر مسلياً ومرفهاً عن النفس؟».

هزت هيلين برأسها نفياً وارغمت نفسها على الاجابة بعد ان شعرت ان الكلمات علقت في حلقها:

«انك... انك مغطى بالوحل! متأسفة جداً يا جايك، ولكن منظرك يدعو الى الضحك».

«هل هذا صحيح؟».

رفع يديه المبللتين ومسح الوحل عن وجهه ثم قال لها:

«طيب، ايتها الجميلة! الآن جربيه انت!».

تطلعت به غير مصدقة وسألته بانزعاج:

«أنا؟ انك تمزح!».

«ولماذا امزح؟ هذه الورطة الشنيعة من صنع يديك، وأنت الآن ستعملين على اخراجنا منها».

عادت هيلين مسرعة الى مقعدها وقالت له باصرار:

«انني لن اغطي نفسي بالوحل لمجرد منحك فرصة للضحك!».

تردد جايك قليلاً ثم استدار ناحية المزرعة وقال وكأنه يحدث نفسه:

«لا بد ان صاحب المزرعة سيكون لديه معدات قد تساعدنا على الخروج من هذه المحنة».

ارتاحت هيلين كثيراً وشعرت ان حملاً ثقيلاً ازيل عن صدرها عندما

تأكد لها انه لن يرغمها على الخروج الى الوحل ودفع السيارة. وقالت له مشجعة:

«اوه، نعم، ربما كان لديه بعض المعدات... جرار زراعي وحبل مثلاً، او اي شيء آخر. يمكنه ان يسحبنا قليلاً الى الأمام! اوه، انها فكرة جيدة».

فتح جايك باب السيارة قائلاً:

«عظيم، كنت اعرف انك ستفكرين هكذا. الآن، اذهبي واسأليه!».

دهشت هيلين مرة اخرى وسألته باستغراب:

«أنا؟ اذهب الى المزرعة؟».

أشعل جايك سيكارة وأجابها بهدوء غريب:

«نعم. سأنتظر في السيارة بحال مرور احد من هنا».

ضمت هيلين شفتيها بانفعال وقالت باصرار:

«لا يمكنني الذهاب الى المزرعة. انها هناك في نهاية هذا الطريق الترابي! ربما كان فيها الآن شخص ينتظر ضحية مثلي!».

رد عليها جايك بهدوء ولطافة:

«في مثل هذا الطقس الماطر؟ اشك كثيراً في ذلك».

حدقت فيه وقد علت فمها نصف ابتسامة وقالت له:

«اوه، انك لست جاداً! انك تطلب مني الاقدام على مثل هذه الخطوة لمجرد افزاعي! هذا تصرف لئيم!».

خلع جايك سترته وقال لها بلهجة الأمر الواثق من نفسه ومن اطاعة اوامره:

«لا، يا هيلين! اني اطلب منك ذلك بكل جدية! وانت ستنفذين الطلب!».

رفعت رأسها بتحد صارخ قائلة:

«اني ارفض!».

«ترفضين؟ حقاً ترفضين؟».

وفجأة انحنى صوبها وفتح بابها ثم دفعها الى الخارج واغلق الباب بقوة واقفله من الداخل.

صعقت، وخافت، وغضبت، واخذت تضرب بيديها على زجاج

السيارة وهي تصرخ:
«جايك، جايك، كفاك حقارة ونتانة! دعني ادخل! البرد شديد وانا مبتلة كثيراً!».
رد عليها صارخاً من الداخل بدون ان يلتفت ناحيتها:
«اذن، اركضي نحو المزرعة! هيا بسرعة! التمرين يساعدك كثيراً!».
ترددت هيلين طويلاً قبل ان تتحرك من مكانها انها تعرف جايك جيداً وتعرف انه يعني ما يقول. ولكن قبولها بما يطلبه صعب للغاية. كيف ستتمكن من الذهاب الى بيت غريب في مثل هذا الوقت المتأخر والجو الماطر لتسأل صاحبه مساعدتها على اخراج السيارة! أليس ممكناً ان يكون صاحب البيت رجلاً يعيش بمفرده... مجرماً... مجنوناً، او اي شيء آخر! شعرت برجفة قوية ونظرت الى جايك شزراً وقد بلغ منها الغضب حده الأقصى. كان مستلقياً في مقعده الذي احنى مسنده الى الوراء، يدخن سيجارة ويستمع الى الموسيقى الهادئة. آه، انها تكرهه... تكرهه!
لم تكن هناك اي فائدة من البقاء قرب السيارة بانتظار ان يغير جايك رأيه. انها تعرف جايك حق المعرفة وتعرف انه لا يتبع الا قواعده هو في اي لعبة يلعبها. وتعرف ايضاً ان مجرد كونها امرأة... او زوجة لا يخولها بالضرورة الحصول على ميزات او افضليات. استدارت نحو تلك المزرعة ومشت ببطء يغلفها شعور بالسخط والغضب والاذلال... وحتى بالخوف الحقيقي. انهمرت دموعها بغزارة.
وعندما اقتربت من المبنى الرئيسي للمزرعة، سمعت اصوات حيوانات في زريبة قريبة ونباح كلب يعلن قدومها. ولكن الذي زاد في انزعاجها وخوفها، انها سمعت بوضوح وراءها لهاثاً قوياً وصوت اقدام. دب فيها الرعب وبدأت تركض باتجاه الشرفة الأمامية للمنزل. ولكنها شعرت، قبل وصولها بخطوات قليلة، بيد تمسك بذراعها. التفتت مذعورة فشاهدت جايك الذي ازاحها آنذاك واندفع قبلها نحو الباب. صرخت به بصوت مكبوت:
«ايها... ايها النتن، الحقير! هل كنت تتبعني طوال الوقت؟».
رفع جايك حاجبيه السوداوين وقال لها بهدوء:
«طبعاً. وهل كنت تظنين انني سأدعك تأتين الى هذه المزرعة بمفردك؟

هل كنت تظنين ذلك؟».
«ولكن... ولكن... لماذا اجبرتني على المجيء الى هنا في المقام الأول؟ لماذا لم تدعني ابقى في السيارة؟».
«وهل كنت ستقبلين بأن اتركك هناك؟ بمفردك؟ في مثل هذا الوقت؟ وفي هذه المنطقة النائية؟».
«اعتقد...».
«قررت اعطاءك درساً، وهذا كل ما في الأمر».
ثم ابتسم قليلاً وقال:
«واعتقد انني نجحت، أليس كذلك؟».
«اوه... اوه، انني اكرهك! اكرهك!».
وفي تلك اللحظة بالذات، فتح رجل باب المنزل واندفعت منه عدة كلاب من انواع مختلفة واخذت تقفز نابحة حولهما. امر الرجل كلابه بالدخول ثم نظر بفضول الى هذين الضيفين المتسخين بالوحل وقال مقطباً جبينه:
«نعم؟».
حياه جايك بتهذيب وقال له:
«انا متأسف جداً لازعاجك في مثل هذا الوقت المتأخر. ولكن سيارتي انزلقت قليلاً الى قناة بجانب الطريق ولم يعد بامكاني اخراجها. فهل تتكرم بمساعدتي لسحبها؟».
وتنحنح قليلاً ثم تابع بسرعة:
«اعرف... اعرف ان الوقت متأخر جداً، وانها ليلة مزعجة. ولكن... كما ترى... فاننا مبتلان حتى العظام».
نظر الرجل ملياً الى هيلين ووجهها المتعب وجسمها المرتجف ثم استدار فجأة نحو الداخل وقال:
«الأفضل ان تدخلا. يبدو ان زوجتك بحاجة الى فنجان من الشاي».
«اوه، شكراً لك!».
قالتها هيلين بحماسة واخلاص فيما كانت تدخل مسرعة وهي تبتسم للمضيف امتناناً وتقديراً. واستقبل المزارع الكهل دخولهما منزله محيياً بتهذيب وتواضع.

«لا شكر على واجب».

اغلق الباب وسار امامها حتى غرفة الجلوس الفسيحة والمريحة حيث كانت مدفأة جميلة تملأ الغرفة بالدفء الممتع والضوء الساحر ورائحة الحطب الطبيعية اللذيذة. زوجة الرجل امرأة قصيرة وبدينة الى حد ما، ولكنها بادية النشاط والصحة كمعظم زوجات المزارعين. وبعد ان قدما نفسيهما على انهما السيد والسيدة مورغان وعرفا ان ضيفيهما هما جايك وهيلين هوارد، توجهت السيدة مورغان الى المطبخ لتعد الشاي، فيما اخذ زوجها يستفسر عما حدث. وعندما اخبره جايك عن الاشكال الذي وقعا فيه بسبب تشابه الاسمين، لاندرانوغ ولانغرانوغ، ابتسم صاحب المزرعة وقال:

«انك لست اول من يقع في مثل هذا الاشكال يا سيد هوارد. فكثيرون قبلك وقعوا في الخطأ ذاته. ولكن هذا ليس مهماً الآن! المهم هو محاولة اخراج سيارتك من المكان الذي علقت فيه».

تنهد المزارع وتابع حديثه مع جايك قائلاً:

«بالطبع، يمكنني استخدام الجرار لسحب سيارتك، ولكن هذه العملية سوف تستغرق بعض الوقت والاصدقاء الذين ينتظرونكما سيقلقون بسبب تأخيركما. ولذلك فإني اعتقد ان من الأفضل الاتصال بهم وابلاغهم عما حدث، ثم تمضيان الليلة هنا وتذهبان اليهم في الصباح. فمن الصعوبة بمكان في مثل هذا المطر والظلام ان تجدا الطريق الفرعي الذي يؤدي الى لاندرانوغ!».

تطلع جايك بهيلين ثم قال لمضيفه الكريم:

«هذا لطف وكرم منك يا سيد مورغان. ولكن لا يمكننا ازعاجكما. . .».

ابتسم المزارع الطيب وقال له مقاطعاً:

«لا ازعاج على الاطلاق! وأنا متأكد من ان السيدة مورغان ايضاً تشاطرني هذه الرغبة. اننا لا نحظى هذه الأيام بكثير من الزوار او الضيوف. واولادنا كبروا وتزوجوا واصبحت لهم عائلاتهم ولم تعد نراهم الا اثناء اوقات العمل او بين الحين والآخر. كذلك فأنا متأكد من ان السيدة هوارد تفضل البقاء هنا الليلة على العودة في هذا الطريق الوعر

والطقس الماطر. أليس كذلك يا عزيزتي؟».

عضت هيلين على شفتها وتطلعت ناحية جايك لا تعرف بما تجيب. فهي شخصياً لا تجد شيئاً افضل من البقاء اطول فترة ممكنة قرب المدفأة ثم الذهاب الى النوم في سرير مريح، عوضاً عن مواجهة المطر والظلام والأوحال مرة اخرى في الليلة ذاتها. ولكن القرار يعود الى جايك! هل سيصر يا ترى على الذهاب الى لاندرانوغ، ام انه سيقبل دعوة السيد مورغان؟

نظرت الى جايك فوجدته مقطب الجبين ويفكر. ولكنه، من ناحية اخرى، يبدو مرتاحاً ومسروراً قرب المدفأة. وتمنت في تلك اللحظة ان يقول شيئاً لينقذها من ذلك التردد. وبما انه ظل صامتاً، فلا بد لها من ان تجيب الرجل الذي كان يتطلع فيها منتظراً.

«أنا. . . لا اعرف ماذا اقول. . .».

تدخل جايك عندها فجأة وقال لصاحب المنزل:

«اعتقد ان علينا متابعة رحلتنا يا سيد مورغان. اعلم ان ذلك سيشكل لك ازعاجاً كبيراً و. . .».

دخلت السيدة مورغان في تلك اللحظة وهي تحمل الشاي وبعض الأجبان والحلوى. وفيما كانت توزع الشاي واطباق المأكولات الخفيفة، اخذ زوجها يشرح لها ما قاله لضيفيها. وقبل ان تصب لنفسها فنجاناً من الشاي، قالت لجايك وهيلين برقة وحنان:

«يجب ان تعلما ان ما من ازعاج على الاطلاق. وكما قال اوين، فإنه يسعدنا كثيراً استضافتكما والتحدث معكما. اعني انه لا يمكنكما التفكير جدياً بمتابعة رحلتكما في مثل هذا الوقت المتأخر وهذا الطقس الرديء».

نظرت هيلين الى جايك وسألته بشيء من التردد:

«هل يوجد هاتف في منزل. . . اصدقائنا؟».

حدق بها جايك واجابها باقتضاب:

«اجل، لديهم هاتف».

ارغمت هيلين نفسها على الابتسام قليلاً وقالت:

«اذن. . . الا يمكننا قبول دعوة السيد مورغان الكريمة والمشكورة والاتصال باصدقائنا لابلاغهم بما حدث؟ اعتقد ان ايجاد منزلهم سيكون

اكثر سهولة في الصباح».

«طبعاً، طبعاً، ولكن. . . كنت اعتقد انك انت تريدين متابعة الرحلة».

عقدت حاجبيها وسألته باستغراب:

«أنا؟ ولماذا انا؟».

برقت عيناه فجأة وقال لها بلهجة ودية:

«حسناً، ان كان هذا ما تريدين».

حاولت هيلين السيطرة على تململها وتبرمها من تعمد جايك دفع الكرة الى ملعبها وحملها هي على اتخاذ القرار. لماذا يا ترى! وارادت ان تؤكد له رغبتها في البقاء، فقالت له بدون تردد:

«اعتقد انني سأكون سعيدة جداً في البقاء هنا هذه الليلة».

انتصب واقفاً وهو يقول:

«عظيم! سأذهب لاحضار الحقائب».

وقف السيد مورغان وقال له معترضاً:

«لا يا بني! يكفيك برداً ومطراً ووحلاً هذه الليلة! ديليس يمكنها ايجاد شيء ترتديه زوجتك، كما انك انت ستجد ما يناسبك في مجموعتي المتواضعة».

«حسناً. انا بالتأكيد نقدر لكما جداً حسن ضيافتكما ولطفكما. أليس كذلك، يا هيلين؟».

هزت هيلين برأسها علامة الايجاب بعد ان فرضت على نفسها ابتسامة مهذبة. انها فعلاً تقدر جداً ما يقوم به مورغان وزوجته، ولكنها ليست مسرورة ابداً من تصرفات زوجها وأساليبه الملتوية. وشعرت انه يدبر لها مقلباً او انه يتمتع بنكتة هي ضحيتها. ولم تتمكن من فهم ذلك التحول السريع والمفاجىء في ملامحه ونظراته.

أخذ السيد مورغان معطفيهما الى غرفة الغسيل لتجفيفهما، فيما كانت زوجته ترشد جايك الى مكان وجود الهاتف. اما هيلين فظلت جالسة قرب المدفأة مرتاحة مسرورة، وقد جف شعرها واحمر خداها. ولما عادت السيدة مورغان وجلست قربها، اخذت هيلين تحدثها عن شقتها في لندن وعن حياة الصخب والضجيج في المدن. اما المضيفة فقد تحدثت عن اولادها

الخمسة واحفادها التسعة عشر. ولما انهى جايك مكالمته الهاتفية المطولة عاد الى غرفة الجلوس ليجد هيلين مندمجة مع السيدة مورغان وزوجها في تصفح مجموعة كبيرة من الصور العائلية التي يعود تاريخ بعضها الى الثلاثينات والأربعينات. ابتسم جايك وقال:

«كل شيء على ما يرام. سيكون صديقانا بانتظارنا بعد الفطور بقليل».

«عظيم، عظيم!».

رددها السيد مورغان وهو يهز رأسه مبتسماً، ثم قبل شاكراً السيكار الفاخر الذي قدمه له جايك. وبعد قليل استأذنت السيدة مورغان لتعد لهما سريرهما ولاحظت هيلين بدهشة ان الساعة تخطت الحادية عشرة. تطلعت بالضيف وقالت له بلهجة يغلب عليها الاعتذار:

«يجب الا نبقيك الى هذا الوقت المتأخر يا سيد مورغان، فمن المؤكد انك مضطر للنهوض باكراً».

هز الرجل رأسه قائلاً:

«ليس كما تتصورين يا سيدة هوارد. ابنائي الثلاثة يقومون حالياً بمعظم الأعمال الصعبة».

ثم ابتسم وهو يضيف قائلاً:

«انني اعمل الآن كمشرف او رئيس ورشة».

شاركته هيلين الابتسامة وقالت:

«أتصور ان الحياة ممتعة جداً هنا».

«أوه، انها رائعة في الصيف! هل زرت المناطق الجبلية في وايلز قبل الآن يا سيدة هوارد؟».

«مع الأسف لم ازر اياً من مناطق وايلز سابقاً. ولكن اذا كان اهالي هذه المقاطعة يمثل لطفكما وحسن ضيافتكما، انت والسيدة مورغان، فإني بالتأكيد سأزورها عدة مرات في المستقبل».

تأثر الرجل بهذه الملاحظة الحماسة التي ابدتها هيلين بصدق واخلاص. وعندما نظرت ناحية جايك رأته يبتسم بخبث ومكر. ومرة اخرى عادت تسأل نفسها عن قصده وعما يرمي اليه. وفي تلك اللحظة عادت السيدة مورغان وقالت للضيفين الشابين بوجه بشوش وابتسامة رقيقة:

«الغرفة جاهزة وقد وضعت لكما ثياب النوم على السرير».

ثم رفعت حاجبيها واضافت وهي تغمز بعينيها:

«الغرفة دافئة جداً وقد لا تحتاجان اليها!».

عندئذ فقط فهمت هيلين ماذا يحدث. طبعاً! كيف لم تخطر هذه الفكرة في بالها؟ فبالنسبة للسيد مورغان وزوجته هي وجايك زوجان عاديان! نظرت الى جايك شزراً فابتسم ابتسامة خفيفة ذات مغزى. ارادت ان تصرخ بوجهه غاضبة وتقول له ايها الوحش كنت تعرف! هذا كان قصده بالطبع، وهذا كان هدفه عندما استدرجها للقبول... لا بل للاصرار على البقاء! لماذا لم تلاحظ هي ذلك؟ كيف تصورت ان السيدة مورغان ستعد لهما غرفتين منفصلتين وهما زوجان شابان تبدو عليهما السعادة والمحبة المتبادلة؟

ولأن من الواضح ان السيدة مورغان كانت تتوقع ذهابها الى الفراش، وقفت هيلين وهي تحاول اخفاء عبوسها وتعاستها ثم تمنت ليلة سعيدة للضيف الكريم وسارت نحو الباب. تبعها جايك بعد ان كرر التمني ذاته للسيد مورغان الذي رد عليهما بالمثل وهو لا يزال في كرسيه الهزاز قرب النار.

كانت الغرفة التي اعدتها لهما السيدة مورغان واسعة وذات سقف عال، وتضم سريراً عريضاً من الطراز الذي لم يعد له وجود الا في المحال النادرة المتخصصة بالمفروشات القديمة.

«اتصور ان هذه الغرفة مريحة ودافئة والسرير متين وقوي. في اي حال توجد هنا اغطية اضافية ان شعرتما بالبرد».

ثم ابتسمت المضيفة المرحة واضافت مازحة:

«ولكني متأكدة من انكما لن تشعرا بالبرد على الاطلاق، اليس كذلك؟ شابان في مقتبل العمر مثلكما لا يمكن ان يشعرا بالبرد! عندما كنا أنا وأوين في سنكما لم نكن بحاجة الا لبعضنا لكي ننعم بالدفء والراحة. اما الآن، فيا حسرتنا، اصبحنا بحاجة الى المدفأة والتدفئة المركزية وأكياس الماء الساخن و...».

ابتسم جايك وقال لها:

«اعتقد انك قمت بترتيبات رائعة يا سيدة مورغان».

هزت سيدة المنزل رأسها اعتزازاً وقالت:

«والحمام في نهاية الممر... الى الجانب الأيمن! وكذلك، يوجد ماء ساخن وبكمية وفيرة ان اردتما اخذ حمام الآن او في الصباح».

ارغمت هيلين نفسها على الابتسام لهذه السيدة اللطيفة وشكرتها على كل ما قامت به نحوهما. ردت السيدة مورغان بابتسامة عائلة وتمنت لهما ليلة سعيدة ودافئة قبل ان تغادر الغرفة وتغلق الباب وراءها. عند ذلك التفتت هيلين نحو جايك وقالت بلهجة غاضبة، ولكن بصوت خافت وهامس:

«كنت تعرف! كنت تعرف أن صاحبي البيت سيعدان لنا غرفة واحدة!».

نظر اليها جايك ساخراً وقال:

«طبعاً، كنت اعرف. ولو كنت تفهمين، لتوقعت ذلك ايضاً! كنت غارقة في مقعدك الدافىء تفكرين بما حدث فلم تنتبهي الى ما يتم اقتراحه. انت المذنبة! والآن... ليس لدينا فقط غرفة واحدة... بل سرير واحد! وأنا من جانبي لست مستعداً للنوم على الأرض!».

٦ - الدفء الجديد!

حدقت به هيلين وهي لا تكاد تصدق اذنيها وسألته بانفعال:

«وماذا تعني بذلك؟».

سار امامها باعتزاز وكبرياء كالطاووس، ثم اجابها بهدوء بالغ:

«وماذا تعتقدين انني اعني؟ الم اقل لك بوضوح ما اعني؟».

احمر خداها وتلعثمت وهي تسأله:

«هل تعني... انك.. ستستخدم.. السرير؟».

استدار نحوها، وكان قد وصل آنذاك الى جانب السرير ورفع بيده ثياب النوم المخصصة له، ثم سألها مازحاً:

«هل لهذه الثياب هدف ما؟».

«بربك يا جايك! دعك من هذه السخافات، وقل لي ماذا سنفعل الآن؟».

جلس على جانب السرير وبدأ يخلع قميصه ويقول:

«لا ادري ماذا ستفعلين انت يا هيلين ازاء هذا الموضوع! اما انا فسوف انام. انك تذكرين انني لم انم ابداً الليلة الماضية، ولذا فأنا غير مستعد على الاطلاق لمواجهة المصير نفسه هذه الليلة».

فتحت هيلين ذراعيها دهشة واستغراباً وهي تسير في الغرفة ذهاباً واياباً، ثم قالت له لاهثة:

«ولكن... جايك! لا يمكننا... النوم... سوية... في هذه الغرفة!».

هز جايك كتفيه وخلع القميص فكشف عن عضلات قوية مفتولة

وصدر عريض اسمر مغطى بالشعر الكثيف. ازاحت هيلين وجهها سريعاً لأنه لم يسبق لها ابداً ان شاهدته عاري الصدر. واكثر من ذلك، انهما لم يذهبا معاً مرة واحدة الى شاطىء البحر، وبالتالي فإنها لم تشاهده من قبل مرتدياً ثياب السباحة. ولكن بدا ان السباحة والشمس لعبا في رحلته الأخيرة دوراً كبيراً في اضافة هذا اللون البرونزي الى جسمه. وسارعت هيلين الى مطالبته بارتداء القميص المخصص للنوم.

رمى جايك القميص بعيداً باستهتار واستلقى على السرير قائلاً لها بكسل:

«البسيها انت! انا عادة لا البس اشياء كهذه اثناء النوم».

«انك... انك لا تعني... ان... ان...».

استدار جايك نحوها وتطلع بعينيها الحائرتين والزائغتين وقال لها مبتسماً بسخرية:

«لا اعني ماذا؟ ان انام عارياً؟ لا... لن اسبب صدمة واحراجاً لطهارتك ايتها العزيزة».

وضعت هيلين حقيبة يدها على الطاولة المجاورة وجلست امام المرآة تسرح شعرها... وتفكر. جلس جايك في السرير وسألها ببرودة اعصاب:

«هل تريدين استخدام الحمام الآن؟».

ردت عليه بصوت غاضب خافت وبلهجة قاسية:

«انك تجد في وضعنا هذا متعة ولذة، اليس كذلك؟ انك لا تهتم بمشاعري مطلقاً!».

قست ملامح جايك بعض الشيء فقام من السرير وتوجه نحوها وهو يقول:

«اسمعي يا هيلين! انت اوقعتنا في هذه المشكلة، فلا تضيفي هموماً ومشاكل جديدة».

«ولكن... لا يمكننا النوم في سرير واحد!».

«لمَ لا؟».

وعندما شاهد احمرار وجهها، تابع حديثه بدون انفعال:

«بعكس ما تعتقدين يا هيلين، فإنني اعتبر بعض الأمور اكثر اهمية

من. . . رغباتي الحيوانية! ألم تستخدمي هذه الصفة في شجار سابق؟».

ثم عقد حاجبيه وقال بجدية بالغة:

«كل ما يهمني الآن، وما اريده حقاً، هو النوم!».

مشت هيلين ببطء وتردد نحو السرير وتأملت قميص النوم بتشكك. انه واسع جداً، فهو لسيلة بدينة تحب الثياب الفضفاضة. هز جايك رأسه بتململ وقال لها:

«اقترح عليك استخدام سروال النوم المخصص لي. على الأقل ان له حزاماً يمكن شده حول وسطك».

شدت هيلين على شفتيها بقوة وقالت بعجلة:

«وأنت، ماذا سترتدي؟».

هز جايك بكتفيه وأجابها بهدوء:

«لا تقلقي نفسك بسببي! سأتدبر امري!».

تنهدت هيلين وقالت:

«لا اريد الذهاب الى الحمام. لمَ لا تذهب انت. . . وادخل انا الى الفراش؟».

تأملها ملياً ثم هز رأسه موافقاً، وقال:

«حسناً، ايتها الخجولة المتواضعة! ولكن رجاء! لا تمضي وقتاً طويلاً في اعداد نفسك للنوم. سأعود سريعاً!».

انتظرت هيلين حتى خرج من الغرفة واغلق الباب وراءه وبدأت تخلع ثيابها على عجل. السروال كان كبيراً وواسعاً الى درجة الازعاج ولكنه على الأقل، كما قال جايك، يمكن شده حول الوسط. وبعدما لبست القميص بسرعة مماثلة قفزت الى السرير وشدت الغطاء فوقها حتى العنق. فعلاً، انه سرير قوي ومريح! ولو كانت في موقف آخر وحالة نفسية مختلفة لشعرت بالراحة والسعادة والرضى.

عاد جايك بعد دقائق قليلة ودخل بدون ان يطرق الباب. نظرت اليه شزراً لأنه اقدم على تلك الخطوة غير المتوقعة. هز رأسه قليلاً وقال لها بلهجة طبيعية منطقية:

«هل يجب علي فعلاً ان اقرع الباب لأدخل غرفة نوم زوجتي؟».

لم تعلق هيلين بشيء بل استدارت الى الناحية الأخرى. هز كتفيه غير

مكترث ثم اطفأ النور ودخل الى السرير. ابتعدت عنه الى ابعد حد، حتى كادت تقع. وكانت متوترة الأعصاب ومشدودة العضلات وكأنها ستنفجر. هل هو الخوف من انه قد يتجاهل ما قاله قبل قليل ويقدم على امر تخشاه وتشمئز منه! الا انها سمعت بعد لحظات وجيزة صوت تنفسه يهدأ ويتبع وتيرة واحدة، فلاحظت بخجل فائق انه. . . يغط في نوم عميق!

مرت بضع ساعات وهي مستيقظة. فالتمسك بحافة السرير ليس بالوضع الصحي المريح الذي اعتادت عليه طوال حياتها. وزاد انزعاجها من جايك عندما قلب على ظهره بكسل ومد ذراعيه ورجليه ليملأ الفراغ الكبير الذي تعمدت ابقاءه بينهما. ولم يتحرك عندما لمست يده احد اجزاء جسمها المتشنج. اما هي فقد ابقت عينيها مغمضتين بقوة، متمنية بكل جوارحها ان يتحول عنها ويعود الى وضعه السابق. بدا وكأنه لا يشعر بوجودها. وفكرت بازدراء بأنه ربما غير معتاد على مشاطرة سريره مع امرأة. ولسعت وجهها مرة اخرى دموع حارة سببها الشفقة على النفس والرثاء للذات.

واخيراً، أرغمها الارهاق والبكاء على النوم. ولم تستيقظ الا عندما سمعت الباب يطرق. قالت نعم قبل ان تفكر، فدخلت السيدة مورغان وهي تحمل الشاي الساخن، محيية ومبتسمة. تضايقت من نفسها. . ومن السيدة مورغان. وعندما فتحت عينيها واكتشفت لماذا تشعر هكذا بالدفء والراحة، وازداد انقباضها وشعورها بالضيق. لا بد انها شعرت بقليل من البرد اثناء نومها، فدفعتها الغريزة الى الالتصاق به! وها هي الآن تلفه بذراعها وتضع رأسها على كتفه!

شهقت بصوت خافت وسحبت ذراعها بسرعة وقوة. ثم جلست وارغمت نفسها على رد الابتسامة للمضيفة الكريمة. جايك لم يتحرك، فقالت لها السيدة مورغان بوجه بشوش ولكن بصوت هامس:

«توقف المطر يا سيدة هوارد! والآن، اخبريني، هل ارتحت في نومك؟».

احمر وجه هيلين عندما لاحظت ان السيدة مورغان تنظر بمرح الى قميص النوم. ولكنها تمكنت من تهدئة نفسها والرد عليها قائلة:

«نعم. جيداً. شكراً لك. وشكراً ايضاً على الشاي. انك ترعجين

نفسك كثيراً يا سيدة مورغان».

«لا ازعاج على الاطلاق يا عزيزتي. بالمناسبة، ماذا يفضل زوجك للفطور؟ البيض واللحم المقدد؟ السجق، مثلاً؟».

«نعم، نعم! شكراً جزيلاً يا سيدة مورغان».

وتمنت في تلك اللحظات ان تغادر ربة البيت تلك الغرفة كي تتمكن من الخروج من السرير وارتداء ملابسها قبل ان يستيقظ جايك من نومه. ولكنها فوجئت بها تقول مازحة:

«ارى انكما تتقاسمان ثياب النوم الرجالية!».

انها بلا شك تعتقد ان جايك يرتدي الجزء الأسفل، اي السروال! فجايك يبدو عاري الصدر في حين انها هي تبدو وكأنها اكتفت بالقميص! لم لا! لتفكر بما تريد! ابتسمت لها هيلين وانتظرت خروجها. ولكن تبين لها ان السيدة مورغان لم تكن على عجلة من امرها. اذ بدأت تتنقل من مكان الى اخر بدون ضرورة او سبب. تفتح الستائر... ترفع شيئاً من هنا وتنقله الى هناك... ثم تعيده الى مكانه الاصلي، او الى مكان ثالث. وشعرت هيلين برغبة في الصراخ. ولكنها حبست انفاسها وركزت اهتمامها على شرب الشاي ومراقبة جايك، والتمني بالا يستيقظ قبل خروج السيدة مورغان من الغرفة. الا ان الحركة المتواصلة والتنقلات المستمرة في الغرفة ادت خلال دقائق قليلة الى النتيجة التي كانت هيلين تتمنى عدم حدوثها. استيقظ جايك وتطلع بهيلين مستغرباً بعض الشيء. ولكنه ابتسم بمكر وغرابة عندما استدار الى الناحية الأخرى ووقع نظره على السيدة مورغان، التي قالت له على الفور:

«آه! استيقظت اخيراً يا سيد هوارد!».

ثم اشارت الى فنجان الشاي الموجود قربه وقالت وهي تصب السائل الساخن:

«احضرت لكما الشاي قبل قليل وزوجتك تقول انك تحب البيض المقلي واللحم المقدد. هل هذا يكفي ام...؟».

قاطعها جايك بابتسامة مهذبة قائلاً:

«هذا هو بالضبط ما اريده يا سيدة مورغان، ان لم يكن في ذلك ازعاج كبير».

«لا يوجد اي ازعاج على الاطلاق. هل نمت مرتاحاً؟».

نظر جايك ناحية هيلين فتفادت نظراته الاستجوابية بالانحناء قليلاً الى جانبها لوضع فنجان الشاي على الطاولة المجاورة. رد على السيدة مورغان بجملة تقليدية مناسبة، ثم خيم صمت مزعج وظلت المضيفة تتطلع بهما وكأنها تنتظر اياً منهما ان يقول شيئاً اخر. ولما لم يتفوها بشيء، حيتهما بتهذيب ثم قالت وهي تتجه نحو باب الغرفة:

«سيكون فطوركما جاهزاً خلال نصف ساعة. هل يناسبكما ذلك؟».

ترددت هيلين قليلاً وقالت لها:

«هذا رائع، ولكن ارجوك الا تزعجي نفسك باعداد اي شيء لي يا سيدة مورغان. انا عادة اكتفي بقطعة خبز محمصة...».

«ولا شيء اخر؟ وانت بمثل هذه النحافة؟ انك بحاجة الى فطور دسم يا عزيزتي. هذا ما اقوله دائماً».

«حقاً يا سيدة مورغان، اني لا اشعر بالجوع».

لم تفهم السيدة مورغان كيف ان ضيفتها ترفض الفطور الدسم الذي يحتاجه جسم الانسان. ولكنها قررت احترام آراء الاخرين، فهزت كتفيها قائلة:

«حسناً يا عزيزتي، ان كان هذا ما تريدين. ولكن تذكري ان هناك كمية وافرة من الخبز المحمص، والزبدة، والعسل».

«رائع!».

قالتها هيلين وهي ترغم نفسها مرة اخرى على الابتسام. وشعرت بانفراج كبير عندما حيتها ربة المنزل وغادرت الغرفة. تنهدت هيلين بارتياح وهمت بالنزول من السرير. الا ان جايك امسكها من ذراعها قائلاً لها:

«مهلاً! لم العجلة؟ لا بد ان الجو بارد في الخارج!».

لم تعجبها الملاحظة والطريقة التي استخدمها، وقالت له غاضبة:

«كان يجب ان اغادر الفراش قبل ان تستيقظ، ولكن السيدة مورغان اصرت على البقاء!».

سألها جايك ببرودة اعصاب مذهلة وهو لا يزال ممسكاً بذراعها ومستلقياً بارتياح على وسادته:

«وما منعك من مغادرة السرير؟».

احمرّ وجه هيلين وقالت بتلعثم:

«اعتقدت السيدة مورغان اننا نتشاطر ثياب النوم الرجالية، ولو اني غادرت الفراش، لاكتشفت الحقيقة».

ابتسم جايك قليلاً وقال:

«ومن شأن هذا الاكتشاف طبعاً ان يحرج السيدة مورغان! لا، لا اعتقد ذلك ابداً».

ضغطت هيلين بشدة على شفتيها ضيقاً وقالت له باقتضاب:

«انه يحرجني انا! ثم، هل تسمح بترك ذراعي؟».

تجاهل جايك طلبها وقال لها منزعجاً بعض الشيء:

«هذا وضع جديد وغير مألوف ابداً، اليس كذلك؟ اعني وجودنا في سرير واحد للمرة الأولى بعد ثلاث سنوات من الزواج؟».

نظرت اليه هيلين شزراً وشعرت برغبة قوية في توجيه صفعة مؤلمة الى ذلك الفم الساخر. وكانت آنذاك تحاول تحرير ذراعها من قبضته، ولكن بدون جدوى. فصرخت به قائلة:

«لم اكن اظن ان الوضع سيكون غير مألوف بالنسبة اليك!».

برقت عيناه غضباً من لهجتها القاسية ونظرات الازدراء والتحقير التي كانت توجهها له كسهام سامة، وسألها صارخاً:

«ولم لا؟».

«هكذا!».

وحاولت مرة اخرى تخليص ذراعها وهي تصرخ:

«اتركني! اتركني!».

هز رأسه بعصبية ثم قال لها بهدوء واصرار:

«اريد ان اعرف لماذا تعتقدين ان هذا الأمر ليس جديداً او غير مألوف بالنسبة الي».

حدقت به هيلين مستضعفة ومتضايقة. وتمنت لو انها لم تعلق بتلك الجملة السخيفة على ملاحظته المؤذية، لأنها فتحت له بها جبهة هجوم جديدة. حاولت السيطرة على اعصابها واستخدام اسلوب آخر معه عندما قالت بلهجة هادئة:

«جايك، ارجوك! انك تؤلمني! وقتنا قصير! السيدة مورغان قالت ان

الفطور سيكون جاهزاً خلال...».

«اللعنة على السيدة مورغان!».

قالها بحدة وعصبية وهو يرفع نفسه على مرفقه ويضغط على ذراعها ليرغمها على الاستلقاء.

ثم سألها بغضب ظاهر:

«والآن، ألن تخبريني عما كان يفكر به هذا الرأس الصغير البعيد الى حد ما عن الطهر والبراءة؟».

هزت هيلين رأسها بعنف من جانب الى آخر قائلة:

«انك... انك وحش! اتركني والا... والا صرخت بأعلى صوتي!».

«بامكانك ان تصرخي. ولكنك لن تفعلي ذلك! تصوري ماذا سيكون تفكير السيدة مورغان!».

«جايك، ارجوك! اتركني هذه... هذه...!».

اختنق صوتها ولم تتمكن من انهاء جملتها. كان قريباً جداً منها... لا بل ملتصقاً بها تقريباً! وفي حين انها كانت تريد الهرب منه والابتعاد عنه، الا ان بعضاً من رغباتها ومشاعرها كان يعارض ذلك الحل العقلي والمنطقي!

تأمل جايك وجهها بقساوة ثم قطب جبينه وسألها ببرودة قائلة:

«هذه ماذا، يا هيلين؟ هذه تصرفات متهورة، ام ربما خطرة؟».

وضحك باستفزاز وتململ ثم قال:

«بحق السماء، يا هيلين! من تظنين انك تخدعين؟ هل تعتقدين حقاً انني لا اعرف ماذا يدور في هذا الرأس الجميل من افكار وآراء؟ هل تظنين انني لم ادرك بما كنت تشعرين امس عندما وضعت رأسك على صدري وحاولت تهدئتي بعد خروجك المنفعل من مطعم الفندق؟».

ثم تابع اطلاق سهامه الحادة وقد تحولت لهجته الى الازدراء والتبرم:

«وهل تتصورين انني لا اعرف النساء بما فيه الكفاية كي يفوتني امر اهتمام احداهن بي؟ كل هذه النقمة المفتعلة... والسخط المصطنع... والغضب الوهمي! هذا كله تمثيل، يهدف الى تحقيق غرض واحد... وواحد فقط! وهو ان تجعليني احس بوجودك كما تحسين انت على ما يبدو بوجودي!».

صعقت هيلين وشعرت برعب وهلع، وقالت له وهي تلتقط انفاسها بصعوبة.

«يا للوقاحة! كيف تجرؤ على التفوه بكلمات كهذه؟ او الايحاء بأمر تافه ورخيص كهذا؟».

وتململت بانفعال وغضب وأضافت:

«لا تظن ابداً يا سيد هوارد ان مستويات الآخرين كمستواك، وتفكيرهم كتفكيرك ورغباتهم كرغباتك!».

تطلع فيها وكأنه يريد التهامها. ثم ابتسم وقال:

«ولم لا؟ أليست هذه هي الحقيقة؟».

انتفضت منزعجة من تلك النظرات الجائعة وشعرت بأنها تريد... ولكنها لاحظت ان جايك تركها فجأة وخرج من السرير ليرتدي سرواله البني فوق ثيابه الداخلية! رفعت ذراعها بسرعة وغطت عينيها اشمئزازاً. وشعرت بأن دموع اليأس وخيبة الأمل... والاذلال تكاد تنهمر بغزارة من عينيها المغمضتين. وقالت لنفسها انها مهما حاولت وكيفما حاولت الاحتجاج والاعتراض، فإن عليها الاعتراف بأن بعض ما قاله صحيح وحقيقة واقعة! انها بكل تأكيد تشعر بوجوده الآن بطريقة لم تشعر بها من قبل تجاه اي رجل آخر. وبسبب ذلك الاحساس، اخذت تشعر... بالغيرة! نعم، الغيرة! آه من تلك الكلمة اللعينة ومعناها المزعج والمؤلم! شعرت بألم يأكل قلبها ومعدتها، فأخفت رأسها بالوسادة كيلا ينتبه جايك الى... شعورها بالخجل. وفي تلك الآونة بالذات، كان جايك ينتهي من ارتداء ثيابه ويضع يده على ذقنه ويقول:

«إني بحاجة لحلاقة ذقني».

آه، كم هو بليد! وشعرت مجدداً انها تكرهه... لقدرته الفائقة على تناسي ما يحدث بسرعة وسهولة. ولكن مشاعره واحاسيسه لم تكن في الميزان. وتألمت مرة اخرى عندما شعرت انه قادر على النوم معها في سرير واحد بدون ان يحاول حتى مغازلتها او لمسها. وشعرت باذلال مزدوج لانها اعتبرته رجلاً بدائياً ويحب النساء، وها هو قد اثبت العكس. ام انها قبيحة وغير جذابة الى الحد الذي يتجاهل فيه حقيقة انها من لحم ودم كأي امرأة اخرى! ثم سمعته يقول فجأة وهو يقف قرب السرير وينظر اليها بسخرية:

«اتردد كثيراً في تذكيرك بأن السيدة مورغان حددت لنا نصف ساعة. كنت اعتقد انك تصرين على مغادرة الفراش!».

«اليك عني!».

«حسناً. ولكن كنت انوي السماح لك باستخدام الحمام قبلي».

«اذهب الى الجحيم!».

واخفت نفسها بالوسادة، فهز كتفيه ومشى متكاسلاً نحو الباب. ثم قال لها وهو يهم بفتح الباب:

«بالمناسبة، الأفضل ان تصبي لنفسك فنجاناً آخر من الشاي... وان تستخدمي فنجاني انا لهذا الغرض، والا ستعتبرك السيدة مورغان زوجة مهملة لا تكترث بأمر زوجها او تهتم به».

اصابت وسادتها باب الغرفة في اللحظة التي خرج منها جايك مقفلاً الباب وراءه. وركعت في السرير غاضبة تضغط على شفتيها بعنف وتمرد. لم يخرج قبل ان يتأكد من ان الكلمة الأخيرة هي دائماً له. نزلت بسرعة من السرير وارتدت ثيابها على عجل. كانت آخر رغباتها في تلك اللحظات ان يعود الى الغرفة ويجدها نصف عارية! ولما رجع بعد بضع دقائق، كانت هيلين تسرح شعرها امام المرآة. وقف قربها واخذ يمرر اصابعه في شعره وعلى ذقنه الذي لم يحلقه، ثم قال:

«يجب ان تسرعي، اذ لم يعد لدينا وقت طويل».

تحولت عنه بحدة ومشت نحو الباب وكأنها تقول له هيا. هز جايك كتفيه بلا مبالاة وذهب الى السرير لترتيبه قبل مغادرة الغرفة. تقلبات هيلين وقفزاتها في السرير جعلته كأرض معركة... غطاء هنا ووسادة هناك، وسمعته فجأة يقول بسخرية لاذعة:

«اكره كثيراً ان اترك انطباعاً خاطئاً عما حدث ليلة امس».

التهم جايك كمية كبيرة من الطعام وكانت السيدتان تراقبانه بنظرات مختلفة تماماً. فالسيدة مورغان كانت مسرورة جداً وتشجعه بحماسة، اما هيلين فقد كادت تغص بقليل من القهوة وقطعة صغيرة من الخبز المحمص. كان منظره وهو يحرث طريقه في الاطباق المتنوعة مزعجاً ومثيراً للقرف والاشمئزاز. وتمنت في تلك اللحظات ان تتمكن مرة من التصرف معه بمثل هذا الهدوء المميز والسيطرة القوية على الاعصاب...

واللامبالاة. لم يكن هناك اي شيء يزعجه اكثر من فترة مؤقتة ووجيزة. وقد بدا واضحا هذا الصباح ان النوم المريح اخفى من تحت عينيه تلك الخطوط السوداء التي خلفها التعب والارهاق، وعاد الى وجهه الأسمر نشاطه وبريقه . . . وجاذبيته.

دخل السيد مورغان بعد دقائق من انتهاء جايك وهيلين من تناول فطورهما، وكانت السيدة مورغان تجمع الصحون وتنقلها الى المطبخ بعد ان اصرت على هيلين الا تزعج نفسها بمساعدتها.

وقال لهما فيما كان الثلاثة يتوجهون الى السيارة:

«طلبت من ابني جيم ان يحضر الجرار الزراعي. لا اعتقد اننا سنواجه اي صعوبة على الاطلاق. فالمطر توقف منذ فترة طويلة والشمس تكاد تجفف الأوحال المتراكمة منذ فترة ما بعد الظهر».

تطلع فيه جايك وشكره بحرارة قائلاً:

«اني اقدر كثيراً كل ما قمتما به نحونا أنت والسيدة مورغان. فقد جعلتما بداية عطلتنا القصيرة سعيدة ورائعة، اليس كذلك يا هيلين؟».

«اوه. . . اوه، نعم!».

سحب جيم مورغان السيارة القوية الرائعة من القناة الجانبية الموحلة، فشهق والده وهو يتأملها:

«هذه فقط تسمى فعلاً وقولاً . . . سيارة!».

وبعد ان تفحصها من الداخل نظر الى جايك مبتسماً وقال:

«اراهن انك تقودها بسرعة مئتين وخمسين كيلومتراً في الساعة بدون ان ترف لك عين!».

ابتسم جايك ورد عليه بتواضع:

«على هذه الطرقات؟ لا يمكن».

«هل كانت السرعة سبباً في انزلاق سيارتك الى جانب الطريق؟».

تردد جايك قليلاً قبل ان يوافقه بايجاز قائلاً:

«الى حد ما».

ثم وجه نظرة ذات معنى الى هيلين وقال:

«يجب ان نذهب الآن».

وبعد تبادل كلمات الشكر والترحيب، انطلق جايك بسيارته مسرعاً فيما

كان الجميع يلوحون مودعين. استرخت هيلين في مقعدها وقد شعرت فجأة بأنها ضعيفة ومتعبة. وكيف لا، وقد جرى لها ما جرى من ارهاق جسدي وانزعاج نفسي طوال الاثنتي عشرة ساعة الماضية.

كان الصمت مخيماً عليهما بشكل قاس عندما بدأت هيلين تفكر بما ستواجهه خلال الست والثلاثين ساعة المقبلة. كيف سيكون موقفها اذا كان السفير وزوجته من الاشخاص الذين لا ترتاح اليهم! ماذا ستفعل ان لم تتمكن من التجاوب معهما؟ ماذا لو صحت توقعات جنيفر واختفى جايك مع السفير تاركاً اياها مع سيدة لا تعرفها؟ عمّ ستتحدث معها؟

في اي حال، لن تدعه يلاحظ ضيقها وانزعاجها، فهو نفسه غارق في افكاره وتصوراته. ومع ان مضيفيها يعرفان مسبقاً انهما اضطرا لتمضية الليل في احدى المزارع، الا انها شعرت بشيء من التململ عندما انتبهت الى انها لم تستحم او تتبرج وان جايك ايضاً لم يستحم او حتى يحلق ذقنه.

ولكن. . . شاهدت هيلين فجأة اللوحة التي تحمل اسم لاندرانوغ فأشارت اليها بشيء من العصبية وكأنها افاقت فجأة من نوم عميق.

«ها اننا وصلنا الى ساحة القرية، فإن منزل السفير يجب ان يكون الى اليمين».

شهقت هيلين عندما شاهدت البيت وقالت بعفوية:

«اوه، انه رائع، رائع يا جايك!».

ابتسم جايك بخبث ومكر ظاهرين وهو يسألها بهدوء مزعج:

«وكم غرفة نوم تظنين انه يحتوي؟».

احمر وجهها بسرعة وهي تتذكر الاحراج الذي شعرت به في الليلة السابقة وقالت له بتلعثم وانفعال:

«هل تعني. . . هل سيكون. . . هل. . .؟».

ضاقت عيناه وقست ملامحه وهو يقاطعها بحدة قائلاً:

«ما هي المشكلة ان كان ذلك؟ ماذا في الأمر؟ لم يحدث شيء الليلة الماضية. ولم تكوني منزعجة ابداً في السادسة من هذا الصباح عندما ايقظني نباح الكلاب!».

خرجت هيلين مسرعة من السيارة، وفي تلك اللحظة بالذات اطل السفير وزوجته يرحبان بها ببشاشة وحرارة وبدون تصنع او مجاملة.

وتبخرت على الفور مخاوف هيلين وتوقعاتها المزعجة. اقترب السفير ناحية جايك وقال له وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويمد يديه لمصافحة ضيفه الذي كان يخرج بدوره من السيارة ويغلق بابها:

«وأخيراً وصلتما ايها الصديق! كنا بدأنا نشكك في انكما ستحضران!».

هز جايك يدي مضيفه بحرارة وربت على كتفه بطريقة شعرت معها هيلين ان الرجلين يعرفان بعضهما معرفة وثيقة مع انهما يتصرفان بكياسة ولباقة عندما يوجد آخرون معهما او قربهما. وكان جايك يقول آنذاك مازحاً:

«كانت رحلة طويلة ومرهقة يا لوسيان. بربك ايها العزيز، الم يكن بامكانكما انت وروز ان تجدا لنفسيكما عشاً جميلاً كهذا في ضواحي لندن؟».

ضحك لوسيان اندانا بمرح وقال:

«آه! تعرف يا جايك اننا نحب الحياة القاسية ونسعى اليها كلما سنحت لنا الفرصة لأنها تذكرنا بطبيعة بلادنا!».

انفجر جايك ضاحكاً واشار الى روز اندانا التي انضمت اليهما بدون تردد. ولبضع لحظات شعرت هيلين بالوحدة والانزواء. فمن الواضح ان جايك والسيدة اندانا ايضاً يعرفان بعضهما حق المعرفة. ولم يكن من الصعب اكتشاف ذلك، اذ ان نظراتها اليه كانت... تباً لهذه الغيرة السخيفة! انها امرأة حامل، وهذه نظرات يوجهها اي انسان يحب المرح والطرائف!

وفي تلك الآونة، تطلع لوسيان اندانا ناحية هيلين. فما كان من جايك الا ان اقترب منها وامسك بذراعها ثم قدمها اليهما باسلوبه المميز. تأمل لوسيان هيلين بعض الوقت ثم قال لصديقه وضيفه:

«انها جميلة يا جايك! ولكني لا استغرب ذلك مطلقاً... فأنت لا تختار ابداً الا الأفضل!».

وتخلى بتردد عن يد هيلين التي كان يصافحها بحرارة، قائلاً لها:

«وآمل ان تمضي وقتاً ممتعاً خلال هذه الزيارة القصيرة يا هيلين. نعدك باننا لن نتحدث في التجارة والصفقات اكثر من... نصف الوقت!».

ابتسمت هيلين وقالت:

«وانا متأكدة من انني سأكون سعيدة جداً خلال وجودي هنا. ان بيتكما

رائع جداً ويعجبني الى حد كبير!».

روز اندانا لم تتحدث كثيراً ولكنها كانت تبتسم على الدوام. وبمجرد دخولهم المنزل، اقترحت روز على هيلين ان تريها غرفة النوم المخصصة لها في حين كان لوسيان يعد شراباً لجايك. تطلع جايك بهيلين مستوضحاً، فهزت برأسها موافقة وقالت:

«اعتقد انها فكرة جيدة. جايك يمكنه احضار الحقائب في وقت لاحق».

«لا داعي لذلك ابداً، موجاري سيحضر الحقائب».

قالتها روز بهدوء وبدون تكلف وهي تصعد امام هيلين على درج من الخشب المحفور متوجهة الى غرفة الضيوف. وتطلعت هيلين فرأت جايك يعطي مفاتيح السيارة لرجل ضخم الجثة عريض المنكبين يرتدي ثياباً عادية. توقفت روز لحظة وقالت لهيلين وكأنها سمعت استفساراتها الصامتة.

«موجاري يقوم بكافة الأعمال المنزلية. انه حقاً رائع ومتعدد المواهب. وهو ايضاً سائق السفير وحارسه الشخصي!».

رفعت هيلين حاجبيها استغراباً وسألت مضيفتها:

«وهل زوجك بحاجة لحارس شخصي؟».

هزت روز بكتفيها قائلة بهدوء:

«جميع المسؤولين في بلادنا يحتاجون الى مرافقين مسلحين. بالطبع، ان وجودهم لا ينفع دائماً. فالقتلة المأجورون يختارون اوقاتاً معينة واماكن معينة لتنفيذ مهامهم».

صعقت هيلين وقالت بهلع:

«انه لأمر مرعب!».

اجابتها روز بلهجة عادية وبساطة ملحوظة:

«الأشخاص الذين يصلون الى مراكز عالية يعتادون مثل هذه الأمور. آه، هذه هي غرفتك!».

تسارعت دقات قلب هيلين وهي تدخل وراء روز الى غرفة فسيحة وجذابة يغمرها ضوء النهار من جهتين. وكان الاثاث من خشب السنديان الرائع، والستائر والأغطية من لون واحد و... اجمل من هذا كله انه كان هناك سريران متشابهان!

«هل تعجبك الغرفة؟».

تنهدت هيلين بقوة وقد شعرت بأن انفاسها تضيق عليها، وقالت بعد لحظات:

«انها... انها... رائعة!».

ابتسمت روز وقد ظهرت على وجهها علامات الرضى والسرور. ثم قالت لها:

«يسرني جداً انها اعجبتك. الآن، تعالي لاعرفك على الأولاد!».

تأملتها هيلين ملياً وقد اصابتها الدهشة من كلمة اولاد. انها لا تزال صغيرة السن ولا يمكن ان تكون اماً الا لطفل سيأتي بعد بضعة اشهر! اولاد! لا، انها تمزح:

«وهل لديك اولاد؟».

«نعم. الم يخبرك جايك؟ انهم ثلاثة... وطبعاً، هذا رابعهم».

صعدت الدماء بقوة الى وجه هيلين وقالت:

«لا... لا، لم يخبرني جايك بذلك. اين هم الآن؟».

«انهم في غرفة الحضانة مع المربية ليزا. تعالي، سيفرحون كثيراً بلقياك».

تبعتها هيلين بصمت الى غرفة جانبية حيث كانت مربية شابة حمراء الشعر تلاعب اطفالاً ثلاثة وتحاول قدر المستطاع منعهم من الاشتباك فيما بينهم او التصرف بأساليب لا يقرها الوالدان. وقالت روز مبتسمة:

«ادخلي يا هيلين. هذه ليزا! ليزا، هذه هي السيدة هوارد، زوجة جايك هوارد».

ظلت ليزا واقفة في مكانها ولكنها حيتها بأدب ظاهر. ولاحظت هيلين ان ليزا شابة جميلة وطويلة الجسم ولكنها نحيلة القد وضيقة الكتفين. وكان يمسك بيديها آنذاك صبيان احدهما طفل لم يتجاوز قطعاً الأحد عشر شهراً ويكاد يقع على الأرض لولا تمسكه بيد المربية، في حين ان الثاني كان في عامه الثالث. اما الطفل الثالث فكان بنتا في الرابعة او الخامسة من عمرها، وقد ركضت نحو امها فور دخولها غرفة الحضانة.

«كيف حالك؟».

سألتها المربية بتهذيب مع ان عينيها لم تعكسا ترحيباً حقيقياً او على الأقل

استقبالاً ودوداً. واكثر من ذلك انها كانت توجه الى الضيفة نظرات عدائية وقاسية. ولم تفهم هيلين على الفور اي سبب لهذا التصرف. وبدا ان روز لم تلاحظ التوتر الذي ساد بين الشابتين، فسألت هيلين وهي تشير باعتزاز ومحبة الى اولادها:

«ما رأيك بأطفالي يا هيلين؟ هذه المتعلقة بفستاني هي روث، وهذا الشقي الممسك بيد ليزا هو جورج».

ثم اخذت الطفل الأصغر من يد المربية ورفعته قائلة:

«وهذا المدلل الصغير هو جايمس».

ثم قبلته وداعبته قائلة بحنان:

«كيف حالك يا حبيبي؟ هل تتصرف كصبي مهذب وعاقل مع ليزا؟».

حاولت هيلين الاحتفاظ بملامح عادية وهادئة على الرغم من النظرات القاسية والانتقادية التي توجهها اليها المربية. ثم ردت على روز بالقول:

«انهم اولاد رائعون يا روز».

«انهم حقاً رائعون، أليس كذلك؟ أنا ولوسيان فخوران جداً بهم. وطبعاً، فان ليزا كنز حقيقي».

«انا متأكدة من انها فعلاً كذلك».

ثم رطبت شفتيها الجافتين بلسانها، وسألتها بهدوء مصطنع:

«هل تعملين مع السيدة اندانا منذ فترة طويلة يا ليزا؟».

هزت ليزا كتفيها واجابت دون اكتراث:

«منذ عامين».

«انها معنا منذ قدومنا الى انكلترا يا هيلين. وستعود معنا بإذن الله عندما تنتهي مهمة لوسيان في لندن. أليس كذلك يا ليزا؟».

تطلعت الحاضنة بمخدومتها وقالت لها بحنان ظاهر، بعد ان تغيرت ملامحها القاسية واختفت نظراتها العدائية:

«آمل في ذلك من كل قلبي».

«يجب ان نذهب الآن والا فان الزوجين سيعتقدان اننا اختفينا».

وفيما كانتا تغادران الغرفة في طريقهما الى قاعة الجلوس، تذكرت هيلين فجأة الطريقة التي قدمتها بها روز الى مربية الأطفال الشابة. الم تقدمها على انها السيدة هوارد... زوجة جايك هوارد! وكأن ليزا تعرف جايك حق

المعرفة وتعرف اسمه الأول. . . وتناديه به! وشعرت هيلين بألم عميق يأكل احشاءها. هل تلك. . . تعرف زوجها؟ وهل تعرفه الى هذا الحد؟ وبما ان جايك على ما يبدو قد زار لوسيان وروز بمفرده عدة مرات في السابق، فلماذا احضرها معه هذه المرة؟



٧- سرير لم يمس!

كان الرجلان يجلسان قرب المدفأة يتبادلان الاحاديث الودية والنكات. ووقفا عندما دخلت السيدتان غرفة الجلوس، الا انّ هيلين تجنّبت النظر الى زوجها بالتطلّع فوراً بلوسيان وسؤاله عن تاريخ المنزل معربة له عن اعجابها بهندسته واثاثه.

لبّى المضيف الطلب بكل سرور وأخذ يشرح لها كل شاردة وواردة عن هذا المنزل الذي يحبه ويعتز به، وخاصة كيفية تحويله الى ما هو عليه الآن من مطحنة يعود تاريخها الى القرن التاسع عشر. ومع أنّ هيلين كانت تصغي اليه بكل انتباه واهتمام، الاّ انه كان من الصعب عليها منع نفسها من التفكير بطبيعة العلاقة القائمة بين جايك وعائلة اندانا، ولماذا اختار احضارها الى لاندرانوغ هذا الاسبوع بالذات! وعلى عكس ما توقعته جنيفر، فمن الواضح ان جايك ليس بحاجة للتظاهر بشيء امام هذين الشخصين اللذين يعرفانه جيداً. كما انه لم تكن لديه ابداً في السابق اي رغبة في التعريف عنها الى اي من اصدقائه باستثناء اولئك الذين يلتقيهم في حفلات عشاء رسمية يقيمها في منزلهما بحي كيرسلاند. فلماذا هذه الدعوة اذن؟ الأن علاقته بالمربية بدأت تضمحل وتفتر؟ الأنها بدأت كغيرها من صديقاته تطالبه بأكثر مما يحب؟

رمّت هيلين شفتيها بعصبية ووجّهت نظرة سريعة ناحية جايك. واستغلت فرصة انشغاله عنها باشياء اخرى فأخذت تتأمله بتفحص ودقة. لماذا يحظى بتلك الجاذبية التي تسحر هذا العدد الكبير من النساء وتشدّهن اليه كالفراشات حول النار؟

بدون وعي او انتباه، قبلت هيلين سيكارة من لوسيان اندانا الذي اشعلها لها باحترام وهدوء وبدأ يحدثها عن بعض الأمور الحياتية في بلاده. ومع انها ارغمت نفسها على التركيز على ما يقوله الضيف المهذب، الآ انها كانت تراقب باستمرار الاهتمام الذي يبديه جايك وهو يستمع الى ما تحدثه به روز.

ماذا تقول له الآن يا ترى؟ ولاحظت فجأة بانزعاج انّ رغبتها القوية لمعرفة ما تقوله روز في تلك اللحظات لم تكن الآ بداعي الغيرة... القوية! يجب ان تفعل شيئاً... ان تبعد تفكيرها واهتمامها عن تلك الغيرة القاتلة! تطلّعت بلوسيان وقالت له:

«هل بالامكان ان نمشي قليلاً في الخارج؟ الطقس جميل جداً هذا اليوم و... بالمناسبة، هل ما زالت عجلة الطاحونة القديمة موجودة؟».

هزّ لوسيان رأسه موافقاً، وقال:

«نعم لا تزال في مكانها».

ثم تنحنح وأضاف مبتسماً:

«يجب ان احذّرك مسبقاً بان العجلة اصبحت شبه محطمة. ولكن اذا كان هدفك الخروج الى الطبيعة الجميلة، فلمَ لا نذهب جميعاً؟ جايك! هل ترغب في تمرين رجليك قليلاً؟».

ابتسم جايك وردّ بلهجة طبيعية وبدون تردد:

«لا مانع على الاطلاق. ما رأيك يا روز؟».

ربتت روز على بطنها بحنان وقالت معتذرة:

«لا اعتقد ذلك. اني متعبة قليلاً. سأنتظركم هنا قرب النار حتى موعد الغداء».

وضع جايك يده في جيبه وقال بهدوء:

«اذن سأبقى كيلا تترك مضيفتنا بمفردها».

شعرت هيلين بانه ينظر اليها ولكنها رفضت التطلّع نحوه، هزّ كتفيه غير مكترث وسأل ربة البيت:

«هل تريدين ان ابقى يا روز؟».

ابتسمت السيدة السمراء بودّ وحنان وأجابته قائلة:

«يجب الاّ ابقيك بعيداً عن زوجتك الجميلة».

قست ملامح جايك فجأة وقال لها بلهجة جافة الى حدّ ما:

«لا تدعي هذا الأمر يقلقك ايتها العزيزة. هيلين يسرها كثيراً عدم وجودي معها بين الحين والآخر».

نظرت اليه هيلين عندئذ، ولما شاهدت ابتسامته الساخرة تعلو شفتيه علقت بمرح ظاهر:

«كم انت على حق يا جايك!».

وشعرت انها سجلت هدفاً في مرماه عندما شاهدت انزعاجه وتململه، ولو مؤقتاً، من وقاحتها وقلة حيائها. اما لوسيان اندانا فقد بدا انه لا يجد ضيراً مما يجري. اذ انه احضر معطف هيلين وساعدها على ارتدائه ثم خرج معها الى شمس الخريف الدافئة. وعندما عادا الى البيت كانت هيلين غارقة في نقاش حول الامور الثقافية والتعليمية في تلك المنطقة من العالم التي يمثلها في انكلترا هذا الرجل المهذب والمحدّث اللبق.

حان موعد الغداء فجلس الضيفان والمضيفان الى المائدة وقام على خدمتهم موجاري، الذي شعرت هيلين بانه يعتبر كأحد افراد العائلة. كان الطعام لذيذاً وشهياً ولم تخف جايك وهيلين اعجابهما به. اما بالنسبة الى احاديث المائدة المعتادة، فقد كان من حسن حظ الجميع ان بينهم ديبلوماسياً يتقن فنّ الكلام ولباقة الاسلوب. ومع انّ جايك وجّه بعض الجمل والكلمات الى روز الآ انه لم يقل شيئاً لهيلين، لا بل انه لم ينظر نحوها. وشعرت هيلين ان ذلك التصرف يسرّها!

بعد الغداء، توجّه الرجلان الى الغرفة المخصصة كمكتب خاص للسفير ليبحثا المشروع التجاري الجديد. كما اعتذرت روز من هيلين وذهبت الى غرفتها لأنها بحاجة الى الراحة والاستلقاء على ظهرها بعض الوقت. وبما ان هيلين لم تكن تشعر بتعب او نعاس، فقد ارتدت معطفها وذهبت الى بقالة القرية حيث اشترت بعض الحلوى للأطفال الثلاثة. وفي اللحظة التي عادت فيها الى المنزل، كانت روز تحضر الشاي الى غرفة الاستقبال. سألتها هيلين مبتسمة:

«هل ارتحت جيداً؟».

ردّت روز الابتسامة بالمثل وقالت:

«نعم، شكراً. واكرر اعتذاري يا هيلين لتركك بمفردك هذه الفترة

الطويلة. اين كنت؟».

«ذهبت الى متجر القرية واحضرت بعض الاشياء الصغيرة للأولاد».

«هذا لطف كبير منك يا هيلين. تعالي واجلسي قربي لنتحدث قليلاً، فهذه فرصة سانحة للانفراد عن الرجال».

ثم ابتسمت وتابعت حديثها بعد ان جلست هيلين على الطرف الآخر للمقعد الكبير:

«اخبريني يا هيلين، متى تنويان انت وجايك البدء بانشاء عائلة؟».

احمرّ وجه هيلين بسرعة وردّت عليها بتلعثم وصعوبة بالغة:

«اوه! انا... اه، لم نفكر... جدياً بعد... بهذا الموضوع».

«ولكنكما متزوجان منذ ثلاث سنوات، أليس كذلك؟ الا تريدين ان تكون لك عائلة؟».

«طبعاً... طبعاً اريد. ولكن الوقت... الوقت ليس... مناسباً... حالياً».

«لماذا؟».

سألتها روز بدون خجل او تكلف وقد زاد فضولها الى حد كبير. هزّت هيلين رأسها وقد شعرت بانها محاصرة من جميع الجوانب ولا مفرّ من اعطاء مضيفتها جواباً شافياً يضع حداً لتلك الاسئلة المتواصلة وذلك الفضول الصريح. ولكن بماذا تجيب، وماذا تقول؟ اخذت فنجان الشاي التي قدمته لها روز واخذت تفكر بعصبية بالغة عما ستقوله روز لو عرفت الحقيقة عن زواجها وجايك. اليس من الممكن ايضاً انها تعرف... وانها لا تستفسر بل تمتحن وتحلّل ردود الفعل؟ لا، لا يمكن ذلك! روز ليست من هذا النوع من النساء. انها ام وتعتبر الأمومة واجباً مقدساً لكل زوجة قادرة، وترى ان ايّ تمنّع مقصود مهما كانت اسبابه امراً غريباً ويدعو الى الاستهجان والاستنكار.

شعرت هيلين بارتياح كبير عندما انقذها من حيرتها وحرج موقفها دخول جايك ولوسيان المفاجيء الى غرفة الاستقبال. وبرقت عينا لوسيان عندما شاهد الشاي والكعك وقال بسرور وانشراح:

«ارى اننا وصلنا في الوقت المناسب. تعال يا جايك وتذوّق هذه الكعكات اللذيذة. انها من صنع موجاري وموضع فخره واعتزازه. صدّق

او لا تصدّق!».

تقدّم جايك بتمهّل من الكرسي الهزاز القريب من هيلين بعد ان اخذ كعكة وصب لنفسه فنجاناً من الشاي. وكان بادياً بوضوح انه يشعر وكأنه في بيته مع انّ هذه هي المرة الاولى فعلاً التي يزور فيها هذا المنزل. وافاقتها من شرود افكارها صوت لوسيان وهو يقول:

«اقترحت على جايك ان يذهب معي في الشهر المقبل لانه يصادف الموعد الذي اجري فيه عادة مشاورات مع حكومتي».

تضايقت هيلين كثيراً عندما سمعت ذلك الاعلان المفاجيء. هذا يعني انّ جايك سيتركها مرّة اخرى ولفترة قد تستمر... وسمعت روز تسأل زوجها بهدوء:

«وهل تنوي البقاء طويلاً يا لوسيان؟ لا احبك ان تكون بعيداً عني عندما يحين موعد ولادتي».

ابتسم الزوج وقال:

«اوه، روز! انت تعلمين ان الولادة لن تتم قبل ثلاثة اشهر من الآن. سأعود قبل هذا الموعد بفترة».

نظرت روز ناحية هيلين وقالت لها متعجبة:

«آه منهم، هؤلاء الرجال! دائماً يسافرون ويبتعدون! لماذا لا يفكر الرجل بأنّ زوجته ستكون وحيدة وتعيسة عندما يسافر هنا وهناك؟».

شعرت هيلين بأنّ مضيفتها تردّد افكارها وتتفوّه بلسانها. الاّ انها لم تقل شيئاً، بل ظلّت جالسة بدون حراك. تطلّع بها جايك محدّقاً وسألها بلهجة الأمر:

«حسناً! أليس لديك شيء تقولينه يا هيلين؟».

رفعت هيلين حاجبيها وقالت له بلهجة وصوت يدعوان الى الاعجاب نظراً لمشاعر الغضب والانفعال والازدراء التي كانت تضج في رأسها وقلبها:

«انا متأكدة انّ هناك اسباباً هامة تضطرك الى الذهاب مع لوسيان. متى تتوقع البدء بهذه الرحلة؟».

ابتسم لوسيان بمرح ظاهر وقال لزوجته متشجعاً:

«أترين؟ أترين نتائج التدريب الجيد؟ لا اثارة ولا انفعال! حتى انها لم

تعترض بشيء مع ان زوجها سيمضي ستة اسابيع في قارة اخرى! ما رأيك بهذا يا سيدتي؟».

احمرّ وجه هيلين غضباً. هل هكذا حقاً بدا ردّ فعلها؟ وهل فعلاً يعتبر لوسيان عدم اعتراضها خضوعاً واذعاناً كحيوان بيتي مدلّل درّبه سيّده تدريباً جيداً على اطاعته طاعة عمياء؟ اللعنة! لقد اذلها جايلك مرة اخرى مع انه لم يقل شيئاً. ولاحظت انها ليست وحدها التي يغمر قلبها الغضب والانفعال، اذ شاهدت روز تهبّ واقفة لتقول لزوجها.

«لا تقارن بين هيلين وبيني يا لوسيان. فهي حرّة كالفراشة تذهب وتجيء متى تشاء وتلتقي بمن تشاء من الاصدقاء. بينما انا امرأة حامل في شهرها السادس وام لثلاثة اطفال اعتني بهم واهتم بشؤونهم ومطالبهم واحتياجاتهم».

تطلّع فيها لوسيان مؤنباً الى حدّ ما وقال:

«ليزا مؤهلة وقادرة تماماً على الاعتناء بالأولاد. لذلك فلست مضطرة للبقاء طوال الوقت في البيت».

انتفضت روز وهي تسأله بانفعال:

«واين اذهب يا سيد اندانا؟ وكيف يمكنني ارتداء ثياب جميلة وانا في مثل هذا الانتفاخ؟».

هزّ لوسيان رأسه وقال بهدوء:

«كفى يا روز».

كان طلبه كافياً، فتوقفت روز عن ابداء اي احتجاجات او اعتراضات كانت تتفاعل في رأسها وافكارها. اما هيلين فقد وضعت فنجانها على الطاولة وهي تشارك مضيفتها شعور الاشمئزاز والازدراء الذي تولّده هذه الرحلات والتصرفات. وخيّم صمت مزعج لفترة طويلة، ولم يكسر ذلك الجمود الاّ عندما وقفت هيلين وسألت روز:

«هل يمكنني ان استحم الآن؟».

فرحت روز كثيراً بسؤال هيلين الذي غيّر الموضوع المزعج وفتح المجال امام تناسي الشجار الهادىء الذي جرى قبل دقائق. فاجابتها بسرعة وهي تبتسم بارتياح:

«طبعاً، طبعاً. موجاري احضر حقائبكما الى الغرفة. هل تذكرين أي

غرفة هي غرفتكما؟».

فرضت هيلين على نفسها الابتسام قليلاً وهي تهز برأسها علامة الموافقة والايجاب ثم خرجت بسرعة من تلك القاعة الكبيرة. الحمّام الساخن في هذا الوقت بالذات هو اروع شيء تحلم به لمثل تلك اللحظات. فهي بحاجة ماسة الى الراحة الجسدية والنفسية، الى تنظيف جسمها وشعرها بعد عذاب الأمس وأوحاله، والى الابتعاد قليلاً عن نظرات جايلك وأفكاره التي تخجلها وتغضبها وتذلّها. وعندما خرجت من الحمام، كانت عتمة ليالي الخريف قد بدأت تزحف ثقيلة وقوية لتحلّ محل ضوء النهار بسرعة ونجاح. وتذكرت انّ روز قالت انها وزوجها يتناولان طعام العشاء عادة حوالى الثامنة، اي بعد اطعام الأولاد في السادسة وتمضية ساعة تقريباً في اللعب معهم ووضعهم في اسرّتهم. لذلك، فانه لا يزال امامها متسع من الوقت. لفّت نفسها بمنشفة حمام كبيرة ورأسها بمنشفة صغيرة وعادت الى الغرفة لتفاجأ بجايلك مستلقياً بكسل على احد السريرين. احمرّ وجهها خجلاً وأغلقت الباب بسرعة، ثم استدارت نحوه غاضبة لتحتج او تعترض فسمعته يقول بدون ان ينظر اليها:

«تأخرت كثيراً في الحمام».

نزعت المنشفة الصغيرة عن رأسها وعلقتها قرب المغسلة في زاوية الغرفة. ثم قالت له ببرودة وتهذيب:

«آسفة. لم اعرف انك تنتظر عودتي كي تستخدم الحمام».

«هناك حمامان، فلو اردت الاستحمام لاستخدمت الآخر».

ثم حوّل نظره اليها وقال:

«لا. ليس الحمام هو السبب. انني انتظرك لأحدثك... على انفراد».

«حقاً؟».

وحملت هيلين فرشاتها وأخذت تسرّح شعرها وكأنها لا تشعر بوجوده او انها لا تكترث بهذا الوجود. وقد اغضبته هذه اللامبالاة، اذ قال لها بانفعال:

«اللعنة عليك يا هيلين! نعم، حقاً، اريد التحدث معك. اريد ان اعرف ماذا حدث لك. منذ وصولنا الى هذا المنزل».

ثم هبّ واقفاً وتابع هجومه واستجوابه:

«لا تقولي انها الرحلة المقترحة مع لوسيان! فانت تتصرفين بغرابة قبل فترة طويلة من اثارة موضوع الرحلة. اضافة الى ذلك كان عليك توقع مثل هذا التطور منذ البداية».

هل ترميه بالفرشاة ام تقترب منه وتصفعه بقوة! كيف يجلس الآن بهدوء على السرير ويسألها عن غرابة تصرفاتها، في حين انه يجب ان يعرف أنّ دوافعه لاحضارها الى وايلز تثير شكوكها وريبتها. وقررت مواجهته، فسألته بهدوء:

«وانت اخبرني اولاً، لماذا أصررت على مرافقتي لك في هذه الرحلة بالذات؟ كنت اعتقد في البداية انك كنت ترمي الى اعطاء انطباع جيد عن استقرارك العائلي، ولكن من الواضح انك صديقها الحميم ولست بحاجة لهذا الانطباع او ذاك. فلماذا احضرتني اذن؟ للحماية، مثلاً؟».

قفز من السرير غاضباً وهجم نحوها بعصبية فائقة، ثم امسكها من كتفيها وسألها صارخاً:

«ماذا تعنين بذلك؟ وما هي حاجتي للحماية؟ اجيبي!».

فزعت هيلين ولكنها تمكنت من الاحتفاظ برباطة الجأش وشيء من هدوء الأعصاب عندما قالت له بايجاز:

«أنت أجب!».

بردت اعصاب جايك قليلاً وقال لها بلهجة شبه عادية:

«ليست لدي أي فكرة على الاطلاق عما تتحدثين عنه أو تفكرين به!».

ارتجف صوتها قليلاً هذه المرة عندما سألته شبه هامسة:

«ألا تعرف؟ اعتقد انك ستنكر اي معرفة بمربية الاطفال، ليزا!».

عقد جبينه بقوة وقال:

«ليزا؟ ليزا هاردينغ؟ لا، بالطبع لن انفي انني اعرفها».

هزّت هيلين رأسها وقالت بتأثر:

«أوه، لا، بالطبع لا. كان عليّ ان ادرك انك مستعد لمثل هذا السؤال. انه من السخافة بمكان نفي معرفتك لاي انسان في هذا المنزل وقد مضى على وجودنا فيه عدّة ساعات!».

«هيلين، بحق السماء! لنصل الى صلب الموضوع!».

«ليزا تكرهني يا جايك. كان ذلك واضحاً تماما عندما التقيتها هذا

الصباح. انها تكرهني الى حدّ كبير، وليس هناك سوى تفسير واحد فقط وهو...».

«وماهو، ماذا تقولين؟!».

ثم أمسك بكتفيها بقوة قائلاً:

«حسناً! حسناً! نعم، اعرف ليزا وأعترف اني دعوتها الى العشاء والسهرة مرتين او ثلاث مرات. ولكن هذا كان قبل فترة طويلة. ولمعلوماتك فاني انا الذي اقترحت على لوسيان وروز استخدامها. ومنذ ذلك الحين، بالتأكيد، لم يعد لدي اي اهتمام بها!».

تلاحقت انفاسها بسرعة وهي تقول له:

«وهل تنتظرني ان اصدق ما تقوله؟ الواضح انك... انك زرت لوسيان وروز عدّة مرات في بيتها بلندن. وهذه هي المرة الأولى... التي اكون فيها معك...».

رفع جايك رأسه الى السماء ثم ركز نظراته على عينيها مباشرة وقال:

«اسمعي يا هيلين! ليزا هاردينغ لا تعني لي شيئا على الاطلاق وهذه هي الحقيقة. انا لست مضطراً للكذب! ثم... انك لا تعيرين هذه القضية اهتماماً حقيقياً. كل ما في الأمر انك تستخدمينها كسلاح ماضٍ كيلا اعترض انا على تورطك مع ذلك المتزمت الحقير مارتينغ!».

رفعت هيلين رأسها بقوة واجابت بحدّة وعفوية:

«انا لست متورطة على الاطلاق مع كيث مارتينغ».

سألها جايك بلهجة ساخرة:

«ألست حقاً؟ هل تقولين لي انه لم يطوقك مرة بذراعيه... او انه لم يقبلك مطلقاً؟».

«طبعاً لا، طبعاً لا».

«اذن كيف تتمكنين من ابقائه هكذا معلقاً بين الأرض والسماء؟ ماذا يستفيد من هذه الدعوات المتكررة لك؟».

في تلك اللحظات حلّ الغضب محل الخوف والازدراء محل الاذلال والسخط محل الانكماش والانزواء. وصرخت به قائلة:

«قد يهمك ان تعرف انّ بالامكان قيام علاقة بين رجل وامرأة بدون ان يكون اي شيء ثالثهما او الوسيط بينهما!».

اتسعت عينا جايك وقست ملامحه عندما سألها متضايقا:

«حقاً؟ اذن يجب الافتراض بانه ليس بينكما سوى رابط فكري بحت!».

«يمكنك اطلاق هذه التسمية على علاقتنا!».

«وماذا يستفيد ماتربنغ من مثل هذه العلاقة الفكرية؟».

«انه لا يحصل على شيء... مادي او ملموس على الأقل. اننا نكتفي بتبادل الاراء...».

لمعت عيناه ببريق مخيف وهو يقاطعها قائلاً:

«عوضا عن الأسرة، أليس كذلك؟».

«كل شيء، تريد تحويله الى علاقة حسية؟ ألا يمكنك ان تتخيل امكانية تبادل آراء وافكار بين رجل وامرأة؟ وهل تعتقد ان الرجال وحدهم هم اصحاب الامتياز في بحث اي مواضيع تروق لهم بذكاء وتعمّق؟».

«لا، لا اعتقد ذلك. ولكني اعرف ماتربنغ، ويمكنني التأكيد انه ليس سعيداً بهذه العلاقة العذرية كما تبدين انت سعيدة بها! ما بك يا هيلين؟ ماذا ينقصه جسمك الرائع هذا حتى لا يمكنك القول بعلاقة طبيعية سليمة؟».

«الهذا تعتبر ارتباطاتك بنساء مثل ليزا هاردينغ، علاقة طبيعية سليمة؟».

تأملها جايك بتهم وقسوة، من رأسها حتى اخمص قدميها. ثم رفع اصابعه التي كانت غارقة في كتفيها وامسكها في عنقها وتمتم لها بصوت اجش:

«لقد تحمّلت منك ما يكفي».

بلعت هيلين ريقها بصعوبة وقالت بصوت أشبه بالهمس:

«انك تؤذيني... تكاد تخنقني!».

ضاقت عيناه وشعرت هيلين أنّ نظراته الحادة تخترق عظامها. وسمعته يسألها بهدوء:

«هل حقاً انا أؤذيك؟».

«جايك! ارجوك... ارجوك!».

«انك ترتجفين...».

وعانقها... ارادت مقاومته. ارادت الفرار من ذراعيه... ارادت ان تثبت له انها لن تتأثر بهذه الطريقة وهذا الاسلوب. ولكن الادعاء والتظاهر كانا بدون فائدة أو جدوى. حملها الى السرير وكانت عيناها مغمضتين. ولكنها عندما فتحتهما بعد قليل وشاهدت عينيه، فزعت وخافت. لم تعد عيناه دافئتين ومزعجتين، بل أصبحتا باردتين وقاسيتين... وغريبتين تماماً عنها. شعرت بموجة عارمة من التحقير والاذلال تغمرها. وأرادت ان تغمض عينيها مرة اخرى لتعيش ثانية سعادة الدقائق الماضية ولكنها سمعته يسألها بعنف وهو ينتصب واقفا:

«والآن اخبريني! ألم يلمسك ماتربنغ ابداً من قبل؟».

هزّت هيلين رأسها من جانب الى آخر وهي ترتجف على رغم حرارة جسمها المرتفعة، وهمست متعذبة:

«لا، لم يمسني ابداً! لم يمسني انسان آخر قبلك!».

حدّق بها جايك طويلاً ثم سألها بوحشية:

«ماذا تحاولين؟ الى ماذا تهدفين؟ أتحاولين دفعي الى اثبات ما تقولين؟».

ردت عليه بهلع وخوف قائلة:

«انا لا اكذب يا جايك، لا أكذب!».

«ربما!».

ثم رفع يده الى جبينه وأدار ظهره وغادر الغرفة بدون ان يتفوّه بكلمة اخرى.

ظلّت هيلين مستلقية على السرير متألمة حزينة، ومتضايقة سلفاً من اللحظة التي سيعود فيها جايك لارتداء ثياب نظيفة قبل جلوسه الى مائدة الطعام. وتسارعت الافكار في رأسها ومخيلتها تحلّل دلائل ما حدث بينهما لاول مرة منذ زواجهما. ولكنه كان من المستحيل عليها التوصل الى اي نتيجة عقلية ومنطقية. شعرت بأنها فعلاً، ولدقائق معدودة، كانت تريده كما أرادها! وحتى الآن فمع انها تشعر بأنّ جسمها قد جف من كل حرارته وطاقته، الا انّ المشاعر والاحاسيس التي اثارها قبل قليل لا تزال تهيمن على تفكيرها وجسمها.

يجب ان تنهض من السرير وتعدّ نفسها لتناول العشاء. آخر شيء في الدنيا تريده في تلك اللحظات هو ان يعود جايك فجأة وتتصوّر بأنها

مستلقية على السرير لا لسبب الا لانتظاره. من المحتمل انه يحتقرها ولكن ليس كما تحتقر هي نفسها. يا للسخرية! هي، هيلين فورسايث، التي شعرت دائماً بالاحتقار نحو اي امرأة ترمي نفسها امام الرجل الذي لا يريدها، اثبتت انها ليست افضل من الاخريات.

نهضت من السرير بعزم واصرار لانها ترفض البقاء مستلقية هكذا لا تفعل شيئاً سوى الانغماس في الاسى والحزن و . . . الشفقة على النفس. ولان آخر شيء، يتنظره منها جايك هو المجابهة، فانه سيحصل منها على مفاجأة كبيرة. انها لن تدع الأمور تسوء باعطائه اي سبب للاعتقاد بانها تلومه عما حدث بينهما. سوف تتصرف معه وكأن نصف الساعة الأخير كان خيالاً وليس حقيقة. . . كأنه لم يكن ابداً!

ولما امضت وقتاً طويلاً في التبرج والتزين وتسريح الشعر ولبست اجمل ما لديها، من ثياب وحلي. وعندما تفحّصت نفسها امام المرآة قبل نزولها الى قاعة الاستقبال، لاحظت انها لم تكن مرّة واحدة في حياتها بمثل هذه الروعة والسحر. ولذلك شعرت انها قادرة على التظاهر بمظهر الواثق من نفسه مع انّ هذا الشعور كان ابعد شيء عنها في ذلك الوقت بالذات.

لم يكن جايك قد عاد الى الغرفة عندما بدأت تنزل الدرجات التسع التي تؤدي الى القاعة الرئيسية. ومع انها كانت متضايقة من قرب اللقاء، الا انها كانت متحمسة لمراقبة ردّ فعله وهو يشاهدها في تلك الحالة الأخاذة.

وعندما وصلت الى غرفة الاستقبال لم تجد سوى ليزا هاردينغ التي كانت ترتدي عباءة خضراء جميلة. دهشت ليزا لرؤية هيلين، الا انّ الضيفة عقدت العزم على التصرف بشكل طبيعي. فحيّت الفتاة بمودة وسألتها:

«واين البقية؟».

ضمّت ليزا ذراعيها بتكاسل واضح وضوح العداء الذي تظهره لها بدون خوف او خجل، وردّت عليها بتهذيب:

«والجميع مع الاطفال. السفير والسيدة اندانا يمضيان عادة هذا الوقت من المساء مع الاولاد، ويبدو ان زوجك وجد الوقت الكافي للانضمام اليهما. انه يحب الاطفال كثيراً».

هزّت هيلين رأسها ثم تمتمت موافقة واخذت تجول بنظراتها في انحاء الغرفة في محاولة للمحافظة على رباطة جأشها والسيطرة على اعصابها.

«هل احضر لك شيئاً؟ انا متأكدة من انّ السيدة اندانا لن تعترض على ذلك».

ترددت هيلين قليلاً ثم قالت:

«لا، شكراً! هل تحبين العمل مع عائلة اندانا؟».

«كثيراً. جايك هو الذي حصل لي على هذه الوظيفة».

دهشت هيلين من وقاحتها ولكنها حافظت على هدوئها وقالت:

«نعم. نعم، اخبرني ذلك».

سألتها ليزا مشككة:

«هل حقاً اخبرك بذلك؟ اوه، اني اعرف جايك منذ سنوات عديدة. انا من ليدز وقد التقينا في احدى الحفلات هناك قبل حوالى عشرة اعوام».

«منذ عشر سنوات؟».

سألتها باستغراب واضح، فهي نفسها لم تكن آنذاك قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها.

«نعم. واعرف والدته ايضاً».

تطلّعت هيلين حولها وهي تفكر بما ستقول أو ستسأل، ولكنها سمعت ليزا تسألها:

«واخبريني يا سيدة هوارد، الا تشعرين ابداً بالضجر؟».

«الضجر؟ ولماذا اشعر بالضجر؟».

هزّت ليزا كتفيها وهي تقول:

«وجايك يمضي اوقاتاً طويلة في الخارج ويتركك. . . وحدك. الا تشعرين احياناً برغبة في الحصول على وظيفة ما؟».

«اوه، اعتقد انني احياناً اشعر بالملل. واقول احياناً لانني اقرأ كثيراً. . . اذهب الى المسارح. . . الى المعارض الفنية! اظن ان وقتي منظم بطريقة لا تترك لي مجالاً للشعور بالضجر».

ابتسمت ليزا وقالت بتهكم:

«من بين كل النساء اللواتي كنّ زوجات محتملات لجايك، لم يختر الاّ زهرة برية مثلك!».

نظرت اليها بتمعن وقالت لها بهدوء بالغ:

«واظن انك وقحة جداً يا آنسة هاردينغ».

هزّت ليزا كتفيها غير مكترثة وقالت:

«لا يهمني ماذا تظنين. كان على جايك ان يكون اكثر وعياً وواقعية. وامه توافقني تماماً هذا الرأي».

رفعت هيلين حاجبيها استغراباً وقالت:

«هل هذا حقاً هو رأيها؟ في اي حال، الامهات لا يخترن زوجات ابنائهن، اليس هذا صحيحاً؟ انك يا آنسة تتجاهلين حقيقة هامة جداً وهي أنّ جايك رجل يعرف تماماً ماذا يريد. ولا يمكنني بالتالي ان اتصوّره يقدم على امر لا يريده، الا توافقيني الرأي يا آنسة؟».

احمرّ وجه ليزا وردّت عليها بانفعال:

«انه اراد اسمك وحسبك، ولم يردك انت كأنت!».

أرغمت هيلين نفسها على توجيه ابتسامة ساخرة وقالت بلهجة تعمّدتها لاذعة وقاسية:

«ربما كان ذلك صحيحاً في وقت من الاوقات يا ليزا. ولكن هل تعتقدين حقاً انه لا يزال صحيحاً حتى الآن؟».

وكان تحريك شفتيها بذلك الاسلوب الساخر الى حدّ ما كافياً لجعل الفتاة الاخرى تضمّ قبضتيها حنقاً وغضباً. ولاحظت هيلين بسرور انها اختارت الطريقة الصحيحة والمناسبة لصدّ هجوم ليزا وردّها على اعقابها. ثم مررت يديها بمكر وخبث على جسمها وسألتها بلهجة المنتصر المسامح:

«اخبريني يا ليزا، هل تعتقدين أنّ هذا النوع من القماش يناسبني؟».

تأففت ليزا بسخط وغادرت الغرفة على عجل. وعندها تنهّدت هيلين بارتياح فائق. فعلى الاقل خرجت من تلك المواجهة البسيطة منتصرة ورابحة. آه، كم تتمنى الفوز بجولات مماثلة مع جايك!

خلال دقائق قليلة دخل لوسيان وروز وحيّا هيلين بمودة وسرور، فسألتهما:

«هل اصبح الاولاد على استعداد للنوم؟».

ابتسم لوسيان واجابها مازحاً:

«ليزا ستتولى امرهم، فهي دائماً صاحبة الكلمة الأخيرة معهم».

وقبل ان تفتح هيلين فمها لتسأل المزيد عن الاطفال ومربيتهم، دخل جايك وكان حليق الذقن ويرتدي بزة سهرة داكنة وقميصاً زرقاء وربطة

عنق مناسبة. وارتجفت هيلين وهي تتأمل اناقته وسحره وجاذبيته. انه رجل بكل ما في الكلمة من معنى! تطلّع نحوها بلا مبالاة تقريباً، ولكنها شعرت اثناء العشاء انه يوجه اليها بين الحين والآخر نظرات الفضول وحب الاستطلاع. ترى ماذا سيقول لها عندما ينسحبان الى غرفتها ويصبحان بمفردهما؟ وقالت لنفسها باصرار انها لن تكون قادرة على تحمّل المزيد من احتقاره لها.

لم تنضم ليزا اليهم واوضحت روز لزوجها وضيفيها أنّ المربية فضّلت تناول العشاء في غرفتها مع انها تلقّت دعوة للانضمام اليهم. ارتاحت هيلين لسماع النبأ، فعداء ليزا لها امر غير مستحب ويسعدها بالتالي عدم وجودها معهم.

بعد العشاء اعتذر الرجلان وانسحبا الى مكتب لوسيان بحجة انهما سيلعبان الشطرنج. وظلّت هيلين مرة اخرى وحدها مع روز. ولكن، لحسن حظها، جذب برنامج في التلفاز معظم انتباه روز فأنساها اسئلتها الشخصية المحرجة. ومضت ساعات الليلة متثاقلة ومتكاسلة، وشعرت هيلين بانها تعاني المزيد من الضيق والانزعاج. وبعدما شربت القهوة التي احضرها موجاري حوالى العاشرة استأذنت مضيفتها للذهاب الى غرفتها. وبدت روز بدورها اكثر استعداداً للذهاب هي ايضاً الى غرفتها. وقالت وهي تهز برأسها:

«آه منهم، هؤلاء الرجال! انهم لا يسألون عنا او يهتمون بنا على الاطلاق!».

ولكنها ضحكت وهي تطلق هذا الاتهام الكبير فعلمت هيلين انها لم تكن جادّة في كلامها. ابتسمت لها متمنية ليلة مريحة ونوماً هنيئاً وصعدت الى غرفتها. وهناك، ارتدت ثياب النوم وقفزت الى سريرها. ولكنها شعرت بالتأكيد أنها لن تتمكن من النوم بسبب الأمور الغريبة والمتعددة التي حملها ذلك النهار. وفعلاً، لم تنم! اخذت تفكر برحلة جايك المرتقبة مع لوسيان، وبحديثها مع ليزا هاردينغ، وتصرّف جايك الهادئ، طوال المساء، واهم من ذلك كله... تصرفه قبل بضع ساعات في غرفة النوم! وتنهّدت بصوت مسموع. هل من الممكن انها هي المسؤولة عما حدث في هذه الغرفة؟ اثارته، فردّ عليها بأسلوب اثبت لها بما لا مجال للشك انها لم

تعد غير مكترثة او مهتمة به!

تقلّبت في السرير عمداً وحاولت طرده من تفكيرها، ولكن جميع محاولاتها باءت بالفشل. ركّزت انتباهها على صوت الريح يصفر بين الشجر... صوت الجدول المتدفق... صرخة طائر ليلي. وفجأة سمعت اصوات أبواب تفتح وتغلق فعلمت ان كلاً من لوسيان وجايك في طريقه الآن الى غرفته. توقفت تماماً عن الحركة. وعندما فتح باب الغرفة اخذت تتنفس بعمق كي يظن انها نائمة. ولكن جايك اضاء النور الموجود بين السريرين. فتحت احدى عينيها نصف فتحة فلاحظت انه بدأ يخلع ثيابه. اغمضت عينيها بقوة مرة اخرى، وانتظرت ان يطفىء النور ويصعد الى سريره.

اطفأ النور بعد لحظات فتنهدت بارتياح. ولكنها شعرت انه يتوجه نحو سريرها بدلاً من سريره، وأحسّت بانه يقف قربها ويراقبها في الظلمة. ظلت ساكنة الحركة بعض الوقت، ولكن تسارع انفاسها فضح تظاهرها بالنوم.

«ابتعدي قليلاً!».

شهقت هيلين وشعرت أنّ قلبها توقف عن الخفقان. قالت له متلعثمة:

«سرير... سريرك.. هناك!».

ردّ عليها بصوت اجش:

«هذا هو سريري».

ولم ينتظر منها تعليقاً او اذناً بل رفع الغطاء واندس تحته قربها. و... وعندما اتى الصباح وغمر نور الشمس الذهبي ارجاء الغرفة كان جايك قد ذهب. فقط سريره الذي لم يمس كان شاهداً على انه امضى الليلة... معها... في سرير واحد!

٨ - فراغ الحب

تحركت هيلين متكاسلة ونظرت الى ساعتها لتجد انها تجاوزت العاشرة والنصف. نزلت بسرعة من سريرها وتوجهت الى الحمام حيث استحمت وعادت الى الغرفة لترتدي سروالاً ضيقاً وقميصاً فوقه سترة رقيقة. وتوجهت الى غرفة الاستقبال لتجد موجاري وحده يغذي المدفأة بقطع خشبية جديدة.

حياها بابتسامة مهذبة بعد ان احنى رأسه قليلاً علامة الاحترام للسيدات. ترددت قليلاً ثم سألته:

«أين الجميع يا موجاري؟».

قطب جبينه قليلاً وقال:

«السيدة روز في المطبخ. والسيدان لوسيان وجايك في الخارج».

ثم ابتسم مرة اخرى وهو يسألها:

«هل تريدينني ان ابلغ السيدة روز بقدومك؟».

«لا داعي لذلك يا موجاري، فها أنا هنا».

ودخلت روز القاعة بهدوء ثم قالت موجهة حديثها الى هيلين:

«سمعت اصواتاً فعلمت انك استيقظت اخيراً يا عزيزتي. يبدو انك نمت جيداً. جايك طلب منا عدم ازعاجك».

احمر وجهها بسرعة ملحوظة، ولكن روز اكتفت بهز اصبعها في وجه ضيفتها مازحة وهي تقول:

«لا تبدأي بتقديم اعتذارات لي. انا افهم الوضع تماماً، صدقيني!».

ثم اطلقت ابتسامة عريضة ومضت الى القول:

«جايك رجل جذاب للغاية، وانا يمكن ان أقع في شباكه!».

لم تعرف هيلين بماذا تجيب، ولكنها حاولت الظهور بمظهر عادي وطبيعي فسألت مضيفتها بهدوء:

«أين هما لوسيان وجايك الآن؟».

فتحت روز ذراعيها كمن يجهل الواقع وقالت:

«ذهبا في نزهة قصيرة، للتفرج على القرية كما قالا. انا شخصياً اعتقد انهما يتحدثان مرة اخرى عن مشروعهما التجاري. لوسيان متحمس جداً لاقامة معمل من معامل مؤسسة هوارد في ضواحي عاصمة بلادنا لأنه يؤمن عدداً كبيراً من الوظائف لعدد كبير من الاشخاص. كما ان البلاد ستجني منه اموالاً هي بأشد الحاجة اليها، بالاضافة الى المكانة المرموقة التي ستحظى بها بين جاراتها».

هزت هيلين برأسها بدون ان تعي شيئاً لأن تفكيرها كان في مكان آخر. وقالت:

«آه، هكذا! وهل اخبرك لوسيان متى يتوقعان مغادرة لندن؟».

هزت روز كتفيها وقالت:

«خلال الأيام القليلة المقبلة، على ما اعتقد. لماذا تسألين؟ الا تريدين ان يسافر جايك مرة اخرى وخلال هذه الفترة القصيرة ايضاً؟».

حتى الآن لم تجرؤ على التفكير بما تريد. لم تكن تعرف ابداً ماذا سيحدث. كيف يمكنها شرح مخاوفها وتشنجاتها الى روز، التي من الطبيعي انها تفترض ان زواج جايك وهيلين طبيعي وسليم! انها تعرف شهرة جايك لدى النساء اللواتي يطالبنه بأي شيء. واكثر من ذلك لم يقل لها انه يحبها. قال لها انه... يريدها، ولكن الأمرين يختلفان الى حد كبير. ولبضع لحظات سمحت لنفسها بتذكر الساعات القليلة الماضية التي امضتها بين ذراعي جايك. كانت تلك بالنسبة اليها اكتشافاً على الطبيعة لما يمكن ان تكون عليه العلاقة بين رجل وامرأة. لم تحلم من قبل ان مثل هذه الآفاق يمكن الوصول اليها، او ان جايك يمكن ان يكون صبوراً الى هذا الحد ليدربها على التخلي عن جمودها و... واحمر خداها مرة اخرى وهي تتذكر. وكانت روز تراقبها باهتمام بالغ. ثم قالت لها:

«من الواضح انك لا تريدينه ان يذهب. لماذا لا تصحبينه في هذه

الرحلة؟».

حدقت بها هيلين وهي شاردة الذهن وسألتها:

«ماذا قلت؟».

«قلت اذهبي معه. لم لا؟ لست مضطرة للبقاء في انكلترا، أليس كذلك؟ ليست لديك أية ارتباطات او التزامات، أليس هذا صحيحاً؟».

«صحيح، ولكن...».

وتوقفت لحظة ثم تابعت كلامها بتردد:

«ولكن... لا ادري! لا ادري!».

هزت روز كتفيها مرة اخرى وقالت:

«لو كنت مكانك لما ترددت لحظة واحدة. لولا هذا...».

وربتت بحنان على بطنها واضافت:

«لولا هذا، لذهبت مع زوجي بدون تردد».

«هل كنت تذهبين حقاً؟».

وعندما شعرت بأن تساؤلها في غير محله، اضافت بسرعة:

«ولكنك ستذهبين الى بلادك... الى موطنك».

رفعت روز حاجبيها وقالت:

«نعم، ولكني اتيت معه الى هنا. لم اكن مضطرة لذلك. كان بامكاننا ان نظل في العاصمة حيث نعيش. كان ممكناً ان اظل انا هناك مع الأطفال ويأتي لوسيان لزيارتنا بانتظام».

«ولكنك زوجة سفير! يجب عليك ان تكوني معه».

تنهدت روز وقالت:

«ربما نعم، وربما لا! ولكني لا ارضى بابتعاده عني!».

ابتسمت هيلين. آراء روز بسيطة وعادية جداً، ولكن لم تكن لديها اي فكرة على الاطلاق عن المصاعب والمضاعفات التي كانت تواجهها طوال السنوات الثلاث الماضية.

عاد الرجلان وقت الغداء وكانت هيلين وحدها في قاعة الجلوس، في حين ذهبت روز الى المطبخ لتشرف على اعداد الطعام. دخل لوسيان اولا وهو يفرك يديه بسرعة لتحريك الدماء في الأصابع الباردة. وحيا هيلين بمرح قائلاً:

«جايك رجل جذاب للغاية، وانا يمكن ان أقع في شباكه!».

لم تعرف هيلين بماذا تجيب، ولكنها حاولت الظهور بمظهر عادي وطبيعي فسألت مضيفتها بهدوء:

«أين هما لوسيان وجايك الآن؟».

فتحت روز ذراعيها كمن يجهل الواقع وقالت:

«ذهبا في نزهة قصيرة، للتفرج على القرية كما قالا. انا شخصياً اعتقد انهما يتحدثان مرة اخرى عن مشروعهما التجاري. لوسيان متحمس جداً لاقامة معمل من معامل مؤسسة هوارد في ضواحي عاصمة بلادنا لأنه يؤمن عدداً كبيراً من الوظائف لعدد كبير من الاشخاص. كما ان البلاد ستجني منه اموالاً هي بأشد الحاجة اليها، بالاضافة الى المكانة المرموقة التي ستحظى بها بين جاراتها».

هزت هيلين برأسها بدون ان تعي شيئاً لأن تفكيرها كان في مكان آخر. وقالت:

«آه، هكذا! وهل اخبرك لوسيان متى يتوقعان مغادرة لندن؟».

هزت روز كتفيها وقالت:

«خلال الأيام القليلة المقبلة، على ما اعتقد. لماذا تسألين؟ الا تريدين ان يسافر جايك مرة اخرى وخلال هذه الفترة القصيرة ايضاً؟».

حتى الآن لم تجرؤ على التفكير بما تريد. لم تكن تعرف ابداً ماذا سيحدث. كيف يمكنها شرح مخاوفها وتشنجاتها الى روز، التي من الطبيعي انها تفترض ان زواج جايك وهيلين طبيعي وسليم! انها تعرف شهرة جايك لدى النساء اللواتي يطالبنه بأي شيء. واكثر من ذلك لم يقل لها انه يحبها. قال لها انه... يريدها، ولكن الأمرين يختلفان الى حد كبير. ولبضع لحظات سمحت لنفسها بتذكر الساعات القليلة الماضية التي امضتها بين ذراعي جايك. كانت تلك بالنسبة اليها اكتشافاً على الطبيعة لما يمكن ان تكون عليه العلاقة بين رجل وامرأة. لم تحلم من قبل ان مثل هذه الآفاق يمكن الوصول اليها، او ان جايك يمكن ان يكون صبوراً الى هذا الحد ليدربها على التخلي عن جمودها و... واحمر خداها مرة اخرى وهي تتذكر. وكانت روز تراقبها باهتمام بالغ. ثم قالت لها:

«من الواضح انك لا تريدينه ان يذهب. لماذا لا تصحبينه في هذه

الرحلة؟».

حدقت بها هيلين وهي شاردة الذهن وسألتها:

«ماذا قلت؟».

«قلت اذهبي معه. لِمَ لا؟ لست مضطرة للبقاء في انكلترا، أليس كذلك؟ ليست لديك أية ارتباطات او التزامات، اليس هذا صحيحاً؟».

«صحيح، ولكن...».

وتوقفت لحظة ثم تابعت كلامها بتردد:

«ولكن... لا ادري! لا ادري!».

هزت روز كتفيها مرة اخرى وقالت:

«لو كنت مكانك لما ترددت لحظة واحدة. لولا هذا...».

وربتت بحنان على بطنها واضافت:

«لولا هذا، لذهبت مع زوجي بدون تردد».

«هل كنت تذهبين حقاً؟».

وعندما شعرت بأن تساؤلها في غير محله، اضافت بسرعة:

«ولكنك ستذهبين الى بلادك... الى موطنك».

رفعت روز حاجبيها وقالت:

«نعم. ولكني اتيت معه الى هنا. لم اكن مضطرة لذلك. كان بامكاننا ان نظل في العاصمة حيث نعيش. كان ممكناً ان اظل انا هناك مع الأطفال ويأتي لوسيان لزيارتنا بانتظام».

«ولكنك زوجة سفير! يجب عليك ان تكوني معه».

تنهدت روز وقالت:

«ربما نعم، وربما لا! ولكني لا ارضى بابتعاده عني!».

ابتسمت هيلين. آراء روز بسيطة وعادية جداً، ولكن لم تكن لديها اي فكرة على الاطلاق عن المصاعب والمضاعفات التي كانت تواجهها طوال السنوات الثلاث الماضية.

عاد الرجلان وقت الغداء وكانت هيلين وحدها في قاعة الجلوس، في حين ذهبت روز الى المطبخ لتشرف على اعداد الطعام. دخل لوسيان اولاً وهو يفرك يديه بسرعة لتحريك الدماء في الاصابع الباردة. وحيا هيلين بمرح قائلاً:

«أسعد الله اوقاتك ايها الجمال النائم! متى استيقظت؟».

ردت عليه هيلين بهدوء وهي تتوقع دخول جايك بين لحظة واخرى:

«حوالى العاشرة والنصف».

«العاشرة والنصف! يا للفضيحة!».

وأخذ يعلّق ضاحكاً على موضوع النصيحة المشهورة التي تدعو الى النوم باكراً والنهوض باكراً. وفجأة دخل جايك الغرفة. نظرت اليه هيلين بأعصاب متوترة ولكنها لم تتمكن من قراءة افكاره أو فهم شيء من خلال نظراته او ملامح وجهه. انه ينجح دائماً في اخفاء مشاعره ولا يفسح مجالاً للتكهن او الاستنتاج. وشعرت بألم حاد يعصر قلبها وفؤادها. كم كانت سخيفة عندما تخيّلت ان ما حدث بينهما الليلة الماضية يعني شيئاً خاصاً ومميزاً بالنسبة اليه! ابعدت نظرها عنه وركزت انتباهها على يديها اللتين وضعتهما على ركبتيها بانفعال وتأثر.

ذهب لوسيان لمساعدة زوجته، فتوترت اعصاب هيلين. ماذا سيفعل الآن؟ ما هي التعليقات اللاذعة او الباردة التي سيطلقها في اللحظة التالية؟ ماذا. . . ؟ ولكن جايك لم يقل شيئاً على الفور، بل اشعل سيكارة وسار نحو المدفأة واخذ يراقبها بهدوء واهتمام. وعندما لم تقل شيئاً او حتى لم تنظر اليه، تأفف بانزعاج ظاهر وقال لها بانفعال:

«هيلين! يجب ان اكلمك».

«لا، ليس الآن! انا. . . انت، اين كنت هذا الصباح؟».

«هيلين، هيلين! انظري اليّ!».

ولكن في تلك اللحظة بالذات دخلت ليزا غرفة الجلوس وابتسمت بحرارة لجايك قائلة:

«جايك! واخيراً عدت! السيدة اندانا قالت انك ذهبت في نزهة مع زوجها. يبدو انني لم اشاهدك الا قليلا خلال هذه العطلة الاسبوعية».

هزّ جايك كتفيه متظاهراً بعدم الاهتمام واجابها بلهجة عادية جداً:

«كانت زيارة قصيرة هذه المرة. لم نصل الا حوالى وقت الغداء امس وسنذهب فور الانتهاء من تناول طعام الغداء بعد قليل».

ابتسمت ليزا بغنج ودلال وقالت:

«أوه، جايك! ولكن، ستأتي لزيارتنا مرة اخرى في لندن، أليس

كذلك؟ لم نتحدث عن الايام الماضية منذ زمن طويل».

«عن انكلترا!».

قالتها هيلين وهي تهبّ واقفة وقد شعرت فجأة بصداع قوي يضرب مؤخرة رأسها. وعلى الرغم من محاولة جايك الامساك بذراعها، فقد تخلّصت منه وهرعت الى الغرفة حيث القت بنفسها على السرير بدون اي اعتبار لثيابها الأنيقة او لأي شيء آخر. وتمنت في تلك اللحظة لو انها. . . تموت! ولكن، ما هي الا دقائق معدودة حتى ارغمها صوت روز على العودة الى الواقع. كانت ربة البيت تناديها لتبلغها بأنّ الغداء جاهز. وعليه، فلا بدّ من النزول الى القاعة ومحاولة التصرّف بشكل طبيعي وعادي.

بدا لها وكأن الغداء لن ينتهي. ولكن بعد انتهاء الغداء وشرب القهوة، شعرت بسعادة بالغة عندما شاهدت موجاري ينقل الحقائب الى السيارة.

تصافح الرجلان وقال لوسيان بحرارة:

«جايك، سررت جداً بحضورك. سأتصل بك صباح الاثنين ان شاء الله عندما اعود الى لندن، ونتفق عندئذ على التفاصيل النهائية للرحلة».

«حسناً يا لوسيان. الى اللقاء يا روز، وشكراً جزيلاً لكما».

«الى اللقاء يا جايك. الى اللقاء يا هيلين. لا تسرع كثيراً يا جايك، بحق السماء!».

تحركت السيارة بتمهل، وظلّت هيلين تلوح بيدها حتى غاب المنزل عن ناظريها. وعندها استرخت في مقعدها ووضعت يدها على جبينها بعد ان اغمضت عينيها وقرّرت الاستراحة لبعض الوقت. انها مرهقة نفسياً ومتوترة الاعصاب نتيجة الجهود المضنية التي بذلتها للتصرّف بشكل طبيعي.

قاد جايك السيارة عدّة كيلومترات بدون ان يتفوّه بكلمة واحدة. ولكنه بمجرد وصوله الى الطريق الرئيسي قال لها:

«الآن يمكننا التحدث، أليس كذلك؟».

هزّت هيلين رأسها متضايقة وسألته بلهجة باردة جداً:

«وهل هناك شيء نتحدث عنه؟».

شتم جايك بصوت هامس ثم قال لها:

«توقفي عن التظاهر بالغباء يا هيلين! انت تعرفين تماماً ما يجب التحدث

عنه. ليلة امس!».

تنهّدت هيلين وقالت بتردد:

«أنا... أنا أفضل عدم... الخوض في حديث كهذا، ان لم يكن لديك اي مانع...».

قاطعها بقساوة قائلاً:

«بل، أمانع! بربك يا هيلين، اعطيني على الأقل فرصة للاعتذار!».

حدقت به بضياع وردّدت كلمته الأخيرة كالصدى:

«الاعتذار؟».

«نعم، اللعنة عليك، الاعتذار! رباه، لا ادري ماذا اصابني! وحتى عندما وجدت... أنك فعلا لم تشعري من قبل، لم اتمكن من تركك بمفردك».

وشدّ بقوة على مقود السيارة وتابع كلامه قائلاً:

«لا اعرف هل ستصدقين أنّ هذا الأمر لن يتكرر ابداً في المستقبل!».

التقطت هيلين انفاسها وقالت له:

«جايك، ارجوك! توقف عن تحويل ما حدث الى قضية عالمية! انا... انا لست طفلة. انا زوجتك، وكنت... كنت اعرف... ما اقوم به».

«هل كنت تعلمين؟ حقاً تعلمين؟ لا تزعجي نفسك بمحاولة التخفيف عن شعوري بالذنب وبالضيق! انا اعلم انني حيوان حقير! ولكن صدقيني، انا لست فخوراً بما حدث!».

«ارجوك! هذه سخافة! لا داعي ابداً لهذه...».

تطلع بسرعة الى وجهها المتعب وقال:

«لماذا لا تشتميني او... اي شيء آخر من هذا النوع؟ اني استحق السباب. لماذا تواجهين الموضوع بهذه اللامبالاة الكريهة والمزعجة؟».

حوّلت نظرها بسرعة عنه تفادياً لنظراته الثاقبة. انه يعتقد انها لا تكترث! اوه يا الله، لو كان بامكانها فقط ان تشعر هكذا لكانت ارتاحت! وخيّم الصمت بينهما فترة طويلة. وعندما وصلا الى الطريق العريض الواسع، اطلق جايك لسيارته العنان وما هي الا فترة قصيرة حتى اقتربا من ضواحي المدينة.

كانت السيدة لاتيمر في استقبالها عندما وصلا الى منزلها بحي

كيرسلاند وسألتهما ان هما تناولا طعام العشاء. هز جايك رأسه نفياً وهو يقول:

«لا، لم نتعشّ بعد. ولكن لا تزعجي نفسك باعداد اي شيء لي. انا... انا سأخرج من البيت بعد قليل».

توتّرت اعصاب هيلين فجأة. انه ذاهب. الى اين سيذهب؟ وأرادت ان تطالبه بعدم الخروج من البيت... بالبقاء معها...! ولكنها بالطبع لم تتمكّن من التفوّه بأقوال كهذه، بل اكتفت بتوجيه كلام هادىء الى مدبرة المنزل:

«وأنا ايضاً يا سيدة لاتيمر، لا تعدّي لي اي شيء على الاطلاق. اعتقد... اعتقد انني سأنام باكراً. ربما بعض القهوة والفاكهة».

ذهبت السيدة لاتيمر لتحضر ما طلبته سيدتها، فيما ظلّ جايك واقفاً بتردّد في منتصف القاعة. كان قد اوصل الحقائب الى غرفتي نومهما وعاد يقف بدون حراك وهو يتأملها بدقة وتفحص. ثم قال لها بهدوء:

«ان التعب والارهاق باديان عليك. أنا آسف».

«أوه، توقّف عن هذه السخافات!».

قالتها بصوت مرتفع ومنزعج. ثم أدارت وجهها عنه وهي تقول:

«بحق السماء، يا جايك! اذهب واتركني وحدي!».

حدّق بها جايك وهو لا يدري ماذا يفعل، وقال:

«هيلين، لا تدعي هذا... يفسد الأمور...».

«يفسد الأمور؟ ماذا تقول؟ يفسد الأمور؟».

وتعمّدت صبغ صوتها بألوان التأنيب والتجريح عندما أضافت بعصبية واضحة:

«يفسد أية امور؟ وهل هناك أية أمور ليفسدها هذا... الشيء الذي تتحاشى ذكر اسمه او صفته؟ بربّك يا جايك! في اي زمن تعيش؟ تخيّل ما قمنا به على انه...».

«هيلين! هذا يكفي».

كانت نبرته آمرة وقاسية، ولكن هيلين تابعت هجومها:

«يكفي ماذا؟ يكفي التحدث بتعقل عن امر يحدث كل يوم بظروف اقل غرابة؟ جايك، انك متزمت جداً! لم اكن لأصدق انك متزمت الى هذه

الدرجة!».

«هيلين! توقفي!».

وأمسك بكتفيها يهزها بعنف ويقول:

«لا تظني انك ستخدعينني بمثل هذه التصرفات! انا اعرف اكثر من غيري فداحة عملي. كل ما اريده الآن هو ان اكون بمفردي».

ابتعدت هيلين عنه خطوتين وقلبت شفتها قائلة:

«افعل ما تريد، فانا غير مهتمة!».

«وماذا ستفعلين انت؟».

«انا؟».

كانت هيلين تكافح انهمار دموعها بصعوبة بالغة. ثم اضافت قائلة:

«ابلغت السيدة لاتيمر انني سأنام باكراً».

احنى جايك كتفيه وقال:

«وهل يمكنني الوثوق بانك ستكتفين بذلك؟».

«ولِمَ لا؟ فليست هناك اشياء كثيرة يمكنني القيام بها الآن».

سرّح جايك شعره باصابع يده وهو يفكر بأمر ما. وشعرت انه يبدو اصغر من سنه واقل تحصيناً مما يظهره. طردت تلك الفكرة السخيفة بسرعة وقوة من رأسها، فجايك هوارد يعيش ضمن قلعة حصينة لا يمكن اختراقها!

«حسناً، ان كنت متأكدة من انك ستكونين على ما...».

رفعت هيلين رأسها بعزم واصرار وقاطعته قائلة:

«طبعاً، انا متأكدة! اوه، اوه، بالمناسبة! متى ستذهب في رحلتك مع لوسيان؟».

«يوم الاربعاء، على الارجح، لماذا؟ الا تريدينني ان اذهب؟».

مدّت هيلين يدها بطريقة تدل على عدم الاكتراث وقالت بلهجة تعمدت فيها اذلاله الى حد ما:

«لا يهمني ابداً ماذا تفعل!».

وكأن تلك الجملة القاسية كانت كافية، فقد استدار عنها وخرج من الباب ثم اغلقه وراءه بعنف.

كانت هيلين تحلم، وكان حلمها مزعجاً ومرعباً. انها تركض على طريق

موحل والمطر ينهمر بغزارة. وجهتها مزرعة مورغان... ولكنها عندما اقتربت من المكان لاحظت انه ليس المزرعة بل بيتها في حي كيرسلاند وكأن قوة خارقة نقلته كما هو الى مقاطعة وابلز. توقفت ووضعت يدها على جبينها واخذت تحدّق مذهولة! سيارة جنيفر كانت هناك... وتملّكها شعور بالغيرة والانزعاج! صعدت درجات السلم راكضة ودخلت القاعة، وعند ذلك سمعت اصوات ضحك وقهقهة نسائية تصل من الغرف العليا.

صعدت الدرج الداخلي بتمهل وهي خائفة مما ستجده او ستواجه به! ومع ذلك فقد كانت تدفعها رغبة جامحة لمعرفة الحقيقة. فتحت باب غرفة جايك فجأة... فكان هناك ومعه امرأة! وعندما استدارت المرأة نحوها، صعقت هيلين! لم تكن جنيفر... بل كانت ليزا هاردينغ!

«لا! لا! لا!».

انتبهت هيلين لنفسها وهي تصرخ بعنف وعذاب غير مصدقة، في حين كانت ليزا تهزّها وتهزّها بقساوة ووحشية...

«هيلين! هيلين! مهلاً، مهلاً! أنت بخير. لا تخافي! انت هنا... في البيت».

فتحت هيلين عينيها بصعوبة، وكان الضوء الأصفر ينير وجه رجل يهزها برفق وحنان لايقاظها. كانت تتنفس بانزعاج وكأنها تكاد تختنق... او انها كانت تركض او تقوم بعمل مرهق. وكان وجهها مبتلاً بالدموع الحارة.

اغمضت عينيها وفتحتها على نحو لا ارادي عدّة مرات ثم همست بصوت خافت بعد ان لاحظت ملامح جايك القلقة:

«ماذا... ماذا حدث؟ ما المشكلة؟».

رفع جايك رأسها قليلاً ووضع وسادة اضافية تحته لترتاح بطريقة افضل. ثم جلس قربها وقال لها وهو يبعد خصلات من شعرها المبتل الى ما وراء اذنيها:

«كنت تحلمين، ومما لا شك فيه انه كان كابوساً مزعجاً للغاية. ظننت في الوهلة الاولى انّ لصاً ما اقتحم غرفتك».

ولاحظت ان ابتسامته ونظراته كانت ارق وانعم من اي وقت مضى. وضعت يدها على رأسها وقالت باعتذار:

«اني... اني آسفة! لم... لم يحدث معي من قبل امر كهذا».

«اعرف. ربما كان هذا نتيجة لتلك العطلة الاسبوعية اللعينة».
ثم هزّ رأسه وسألها برقة:
«هل انت بخير الآن؟».
«نعم، اعتقد ذلك».
كانت عيناها تأكله... تحبه... تراقب ادنى حركة يقوم بها! انه زوجها... ورجلها... وحبيبها! ثم... وقف جايك فجأة وقال لها:
«اذن سأذهب. تصبحين على خير يا هيلين».
«انتظر!».
قالتها بلهفة وهي ترفع نفسها على مرفقها. ثم امسكت بيده وقالت:
«جايك... لا تذهب!».
اندفع الدم الى خدي جايك بقوة وقال:
«اعتقد انك قلت انّ كل شيء اصبح على ما يرام وانّ...».
وعندما لاحظ تلك النظرات الخاصة في عينيها الزرقاوين الحالمتين، تابع حديثه بعد ان غيّر لهجته قليلاً:
«بحق السماء، يا هيلين! انك لا تعرفين ماذا تطلبين!».
«اعرف».
ورفعت يده الى شفتيها، ولكنه سحبها بقوة ومشى بسرعة نحو الباب. لم يتطلع وراءه، بل خرج من الغرفة وهو يغلق الباب بقوة. وتردّد صدى عميق عمق الفراغ الذي كانت تمر به مشاعرها في تلك اللحظات بسبب رفضه لها...

لم تكن محطة السكك الحديدية في سلبي المكان المفضل بعد ظهر ذلك اليوم البارد من ايام الخريف الأخيرة. وكانت هيلين تحمل حقيبة صغيرة. وبعد ان اعطت تذكرتها الى الموظف المسؤول، غادرت المحطة وأوقفت سيارة اجرة. اعطت السائق المهذب عنوان والدة جايك، واستراحت في زاوية المقعد الخلفي تتمتع بالدفء وتنتظر الوصول الى ذلك العنوان الذي حصلت عليه نتيجة لبعض المراسلات القليلة بينهما.

من او ماذا وضع في رأسها فكرة الاستعانة بوالدة جايك! هل هو ربما تصرّف جنيفر! انها لا تدري فعلاً. كل ما تعرفه انها استيقظت هذا الصباح وكان رأسها يضج بشعور مزعج ينذر بالسوء. وتذكرت بألم ماذا حدث

معها في الليلة السابقة، واجتاحتها موجة من الاذلال القاسي نتيجة رفض جايك الفوري لها. وعندما لاحظت انه غادر المنزل، شعرت بارتياح كبير.

خلال فطورها الذي اقتصر على القهوة والسجائر، حاولت هيلين جاهدة تقييم موقفها باسلوب علمي وموضوعي فتوصّلت الى نتيجة واحدة فقط. لا يمكنها بعد الآن ان تعيش مع جايك تحت سقف واحد. لانها تعرف انه يحتقرها... ولأنها تخشى من ان يخلق لها ضعفها تجاهه مزيداً من الاذلال والتحقير. طبعاً هناك احتمال التقدم منه بطلب الطلاق... وهذه نتيجة يمكن التوصل اليها بشيء من السهولة. الطلاق في بلادها لم يعد يمثل الصعوبة التي كان عليها في السابق... كما انه لا يهمها من منهما سيعتبره القاضي مذنباً بحق الآخر كي يبت بالطلاق.

ولكن، اذا تمّ الطلاق بسرعة... فعليها ان تجد لنفسها مكاناً تقيم فيه. اين؟ ومع من؟ فكرة تحوّلها الى انسانة وحيدة منزوية على نفسها كانت مرعبة ومزعجة. ولكنها لا يصح ان تتوقع منه الاهتمام بها او رعايتها. فهي انسانة صحيحة الجسم والعقل وليس هناك من سبب منطقي يمنعها عن ايجاد عمل تعيش من دخله.

تذكرت رحلته المقترحة الى افريقيا. لو كان بامكانها فقط ان تتجنبه تماماً لحين عودته، فانها قد تتمكن من السيطرة على اعصابها وتتناسى طلب الطلاق او الانفصال. اما الآن فشعورها هو انها غير مستقرة عاطفياً... غير قادرة على تحمّل المزيد من الاذلال او الجدل والشجار! اتصلت بجنيفر وابلغتها بما تنوي القيام به. اصيبت جنيفر بصدمة حقيقية ولكنها لم تتمكّن من مساعدتها بشيء لأنه لم تكن لديها ادنى فكرة عن التفاصيل الفعلية للوضع القائم.

«ولكن يا عزيزتي، انت تعرفين جايك وتصرفاته منذ سنين! لماذا القرار المفاجيء بالطلاق؟ كنت اعتقد دائماً انك غير مهتمة على الاطلاق بما يفعل».

بلعت هيلين ريقها بصعوبة وقالت لصديقتها ذلك الصباح بكلمات مختارة بعناية:

«ربما لأنني لم اعد اتحمّل مثل هذه العلاقة الاصطناعية! ربما لأنني اريد... زواجاً حقيقاً... عائلة!».

«رباه، هيلين! ماذا تقولين؟ لا يمكن ان تكوني جدّية!».

«لمَ لا؟».

«لمَ لا! لأنك يا حبيبتي لست من هذا الطراز. لا يمكنني ابداً ان اتخيّلك تقبلين ضرورات الأمومة الأقل جاذبية وسحراً! تخيّلي نفسك وانت حامل! دعيني اسألك ابنتها العزيزة . . . من يريد تمضية تسعة اشهر وهو يزيد قباحة على قباحة يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوع وشهراً بعد شهر!».

وتذكّرت هيلين وهي نصف نائمة في سيارة الاجرة ان اصابعها شدت بقوة على سماعة الهاتف عندما سمعت تلك الكلمات الحاقدة، وأنها كانت على وشك ان تصرخ بها قائلة:

«انا! نعم انا اريد ذلك! ما دمت انني احمل طفل جايك!».

ولكنها لم تقل شيئاً من هذا النوع بل سمحت لجنيفر ان تستمر في محاولة اقناعها بالعودة الى عقلها ومنطقها. ثم اقفلت الخط وجلست فترة طويلة تحدّق بسماعة الهاتف الصمّاء. وبعد لحظات خطرت ببالها فكرة الذهاب الى سلبي حيث تسكن والدته. لن يعرف مكان وجودها، ومن المؤكد انه لن يفكر حتى بالاستفسار عنها هناك. سيذهب مع لوسيان، وعندئذ فستعود الى البيت وتحزم أمتعتها وتضع مشكلتها بين يدي احد المحامين.

وصلت السيارة الى سلبي، بلدة جايك التي ولد وترعرع فيها. تنهّدت هيلين بشيء من التحسّر والاستغراب. فطوال السنوات التي امضتها معه لم تزر هذه البلدة مرّة واحدة من قبل. كيف ستستقبلها والدته يا ترى! انها لم توافق اصلاً على زواجه منها، ولذلك كان من الطبيعي ان تسر برؤيتها هناك وهي على وشك الانفصال عنه. ولكن، هل يمكن لوالدته ان تشعر بقلق هيلين من ان جايك قد يحاول ايجادها في لندن واقناعها بالعودة اليه! وهل من الممكن ان تفهم السيدة العجوز انها الآن اكثر استعداداً بكثير لتلبية هذا الطلب فيما لو قدمه اليها وهي بمثل هذه الحالة من الضعف والانزعاج؟ وهل ستساعدها على الاختفاء في بيتها لحين وصول جايك الى افريقيا، وبالتالي منحها فترة شهرين تقريباً لاعداد حياة جديدة لنفسها!

كانت السيدة لاتيمر تنظر اليها بغرابة ذلك الصباح، وبخاصة عندما خرجت من البيت وهي تحمل تلك الحقيبة في يدها. ابلغتها بانها ذاهبة الى المستشفى للتبرع ببعض الكتب، ولكنها شعرت ان مدبّرة المنزل لم

تصدّقها. الا انه لم يعد بامكانها القيام بأي ترتيبات اخرى الآن، باستثناء التأكد من أن أحداً لم يسمعها وهي تعطي سائق سيارة الاجرة اسم محطة السكك الحديدية في كينغز كروس.

عاد بها تفكيرها الى الوقت الحاضر عندما انتبهت انها اصبحت على مقربة من المكان الذي تسكن فيه والدة زوجها. اخذت تقرأ اسماء الشوارع، واخيراً برز الاسم الذي تنتظره . . . هاريسون تيراس. وها هي السيارة تتوقف خلال لحظات، وتنزل هيلين متأملة البيت الصغير الضيق الذي ولد فيه جايك، فيما كان السائق يحمل حقيبتها ويضعها امام الباب.

ضغطت هيلين جرس الباب وأخذت تنتظر السيدة العجوز بقلق وترقب متوتر. وما هي الا لحظات حتى فتح الباب وأطلّت سيدة في السبعين من عمرها.

«نعم؟».

قالتها بلطف وهي تفتح الباب بهدوء وروية، ثم شهقت ووضعت يداً على فمها وهي تتمتم:

«رباه! هيلين... أليس كذلك؟ ما المشكلة؟ ما الخبر؟ هل وقع حادث؟ هل جايك مريض؟».

هزّت هيلين رأسها بقوة قائلة:

«لا، لا، لم يحدث شيء من هذا. جايك بخير. . . ولكنه لا يعرف انني هنا».

عقدت السيدة هوارد جبينها محتارة ومستغربة، ثم تراجعت خطوتين الى الوراء قائلة:

«اذن، اعتقد ان من الأفضل ان تدخلي!».

«شكراً لك».

أغلقت ربة البيت الباب الخارجي ثم فتحت آخر في نهاية الممر وهي تقول:

«بمكننا الجلوس هنا».

كانت تلك الغرفة على ما يبدو المكان المخصص لاستقبال الزوار الذين ليسوا مقربين الى صاحبة المنزل. وهي غرفة نظيفة جداً ومرتبة جداً ولكنها

باردة لا حياة فيها، ومن الواضح انها لا تستعمل الا نادراً.
دهشت هيلين وقالت لها:
«أوه، ارجوك! انا متأكدة انك لم تكوني جالسة هنا قبل وصولي. الا يمكن ان نذهب الى هناك؟».
تردّدت السيدة العجوز وسألتها بصراحة:
«وهل حديثنا سيطول؟».
تنهدت هيلين وقالت:
«نعم، اخشى ذلك».
عضّت والدة جايك شفتها بتململ وقالت بتذمر وبلهجة تحمل شيئاً من الضغينة:
«اوه، حسناً. لنذهب الى المطبخ. انه بالتأكيد افضل مكان من حيث الدفء».
كان المطبخ واسعاً كالغرفة الاخرى وفيه مدفأة جميلة وكرسيان هزازان. أشارت السيدة هوارد لهيلين كي تجلس على احد الكرسيين، ثم قطبت حاجبيها عندما لاحظت على ما يبدو ان زوجة ابنها تحمل حقيبة سفر في يدها. وقالت:
«سأغلي الماء الآن».
ابتسمت هيلين وجلست في ذلك الكرسي المريح بعد ان خلعت معطفها وعلّقته الى جانبها. وشعرت فجأة بأنها متهالكة ومرهقة، وبأنّ تلك الغرفة الصغيرة المليئة بالدفء والحياة هي افضل مكان في العالم. أحسّت بانها آمنة هنا... ومطمئنة ايضاً. عادت السيدة هوارد ووقفت امامها تفرك يديها بتردد وشكّ ثم سألتها:
«والآن يا صبيّتي! ماذا في الأمر؟».
تنهّدت هيلين وقالت لها بتهذيب:
«الن تجلسي انتِ ايضاً؟».
«لا بأس! حسناً... اخبريني الآن ما بك!».
فكرت هيلين لحظة بافضل بداية لحديثها ثم قالت:
«في بداية الأمر، يجب ان اخبرك ان جايك وانا مقبلان على الطلاق».
«ماذا؟!».

قالتها السيدة الرصينة باستغراب وعصبية، ثم مضت الى القول:
«ولكنه لم يقل لي اي شيء بهذا الخصوص!».
«لا، ولكن... تقرر هذا الأمر بصورة مفاجئة! في الحقيقة، انّ جايك لم يوافق تماماً...».
«ماذا تقولين يا هيلين؟ كيف يمكنك الحصول على الطلاق ان لم يكن جايك موافقاً؟».
«بالفعل يا سيدة هوارد، انا التي اريد الطلاق. وهذا قرار نهائي. انت تذكرين بلا شك انك لم توافقي في المقام الأول على زواجه مني. كنت على حق يا سيدتي! انا لا تناسب بعضنا مطلقاً».
تمتمت السيدة هوارد بكلمات غير مفهومة ثم نهضت لاعداد الشاي وسألتها:
«ولكن لماذا حضرت الى هنا؟».
رطبت هيلين شفتيها الجافتين وقالت بتردد:
«ليلة امس... ليلة امس حدث... شجار عنيف بيننا. خرجت... خرجت من البيت اليوم... لأني اريد ان اكون خارج لندن الى ان يسافر الى تسابا واعرف انه لن يفكر ابداً في البحث عني... هنا».
«تسابا؟».
وعادت السيدة هوارد ومعها الشاي، ثم سألت مرة اخرى:
«وما هي تسابا هذه؟».
«دولة افريقية صغيرة يعرف جايك سفيرها في لندن».
قطبت العجوز جبينها لحظة ثم قالت:
«اوه، نعم، نعم. اليس اسمه اندانا او ما شابه؟ انه هو الذي وظّف جايك ليزا هاردينغ مربية اطفال لديه».
شعرت هيلين بألم حاد في امعائها وكأنها طعنت بالسكين. ثم ارغمت نفسها على الرد، ولو بصوت مخنوق ومتقطع:
«هذا... صحيح. و... ثم... جايك سيسافر الى تسابا يوم الاربعاء، على ما اعتقد. فاذا... اذا كان بامكاني... البقاء هنا... لحين مغادرته لندن...».
«البقاء هنا؟».

قالتها بدهشة واستغراب بالغين، واضافت متسائلة:

«ولكن، لماذا هنا؟ من المؤكد انَّ لك اصدقاءك الذين يمكنهم استضافتك، اليس كذلك؟ أنا لم اسمع في حياتي بمثل هذا الأمر! تأتين الى بيتي، وتطلبين مني ان اقف الى جانبك ضد ابني!».

أزاحت هيلين فنجان الشاي وقد عيل صبرها، ثم ردّت بسرعة وعصبية:

«لا، لا، ليس الأمر هكذا على الاطلاق. الا ترين! كنت اعتقد انك ستفرحين».

«لماذا؟ لأن زواج ابني على وشك الانهيار؟».

«زواجه مني انا! نعم».

ردّت السيدة العجوز بشيء من التأثر:

«كنت اعتقد انَّ جايك سعيد في زواجه. كان دائماً يبدو لي مرتاحاً ومسروراً كلّما اتى لزيارتي».

وقفت هيلين فجأة وقالت بعصبية:

«اذن، فانك لن تساعديني!».

وقفت والدة جايك ايضاً وقالت لها بهدوء وروية:

«اهدأي يا ابنتي، انا لم اقل ابداً كلاماً كهذا! ولكن كيف تتوقعين الحضور الى هنا وتفجير مثل هذه القنبلة ولا تحصلين على ردّ فعل مطلقاً؟ بحق السماء يا هيلين، نحن لسنا من طبقتكم اللندنية الارستقراطية. هنا في سلبي، الزواج يعني اكثر بكثير من مجرد اسطر قليلة على ورقة صغيرة!».

احتجّت هيلين بسرعة قائلة:

«انه يعني اكثر من ذلك بالنسبة الي ايضاً. ولهذا اريد الطلاق».

هزت ربة البيت رأسها بتعجب قائلة:

«ولكني لا افهم. كان لدي دائماً انطباع بانك تزوجت جايك لأنه... لنقل لأنه يضمن لك حياة لائقة طوال العمر! فماذا حدث الآن؟ هل برز شاب آخر يقدم عرضاً افضل؟».

تضايقت هيلين من هذا السؤال فخجلت السيدة المسنّة وقالت:

«حسناً، حسناً! اني اسحب كلامي. ولكن عليك الاعتراف بانك لم

تكوني تحبين جايك عندما تزوجته».

جلست هيلين في كرسيها وقالت:

«اعرف ذلك. واعتقد انني تزوجته للأسباب التي ذكرتها قبل لحظات. ولكني اخترته ايضاً لسبب خاص جداً... وهو ترويع اقرباء والدي واغضابهم».

ثم رفعت رأسها نحو والدة زوجها ومضت الى القول:

«عزلوا والدي ونبذوه لأنه لم يكن مثلهم. انهم متزمتون جداً ومن المدرسة الارستقراطية القديمة! جايك كان يمثل النقيض التام لكل معتقدات عمي وأفكاره البالية. وهذا هو احد الأسباب الرئيسية لقبولي الزواج منه».

«هكذا اذن!».

وجلست صاحبة البيت ايضاً ثم تنهدت وقالت:

«ولكنك الآن تريدين الحصول على حريتك مرة اخرى؟».

بلعت هيلين ريقها بصعوبة وقالت:

«يمكنك ان تقولي ذلك».

«اذن لماذا لم تنتظري ذهابه الى تسابا؟ من المؤكد انَّ يومين فقط لن يحدثا فرقاً كبيراً بعد فترة تزيد على ثلاث سنوات؟».

«لا! لا!».

كررتها هيلين بعناد واصرار، ثم مضت الى القول بتأثر وانفعال:

«كنت... كنت مضطرة للذهاب. انا آسفة، ولكن... لم يكن ثمة مجال آخر».

وقفت السيدة هوارد مرة اخرى وأخذت فنجاني الشاي متجنبة الى حدّ كبير النظر الى وجه هيلين الشاحب والحزين. ولما عادت، كانت هيلين سيطرت على اعصابها وخفّ انفعالها. تأملتها والدة زوجها مليا ثم قالت لها فجأة:

«يمكنك البقاء! استخدمي غرفة جايك، فهو لن يحتاج اليها».

هبّت هيلين واقفة وقد لمعت عيناها فرحاً وسروراً وقالت:

«اوه، شكراً لك؟ شكراً جزيلاً!».

هزت السيدة العجوز رأسها بأسى وقالت:

«لا تشكريني. انا لا اعلم هل اقوم بخطوة سليمة أو لا! من الواضح انك متضايقة جداً الآن وغير قادرة على مناقشة الموضوع بهدوء وروية. تعالي، سأريك الغرفة ثم اعدّ قليلاً من الطعام».

هزّت هيلين رأسها بدون ان تتفوّه بكلمة واحدة. اعجبتها السيدة هوارد. ففي طريقة تصرفها وسرعة حسمها للأمور شيء من القوة واعادة الطمأنينة. وهي مثل جايك، من حيث ان لا وقت لديها للتظاهر او الادعاء.

٩- العسل يذوب الليلة

انفجرت الآنسة فرايزر باكية في حين كان جايك يضع مرفقه على مكتبه الخشبي ويسند رأسه الى يده مفكراً. وبعد ان تأمّل الفتاة بانزعاج هادىء، تنهّد بضجر وتململ قائلاً:

«لا بأس يا آنسة فرايزر، لا بأس. سنعيد الكرة مرة اخرى. هل وصلت الى موضوع التحاليل الكيميائية؟».

هزّت برأسها علامة الايجاب، فتابع حديثه بهدوء:

«عظيم! لنبدأ اذن من هذا الموضوع».

تفحّص الاوراق الموجودة امامه وعاد يملي عليها بتمهّل، نص مذكرة هامة يريد ارسالها ذلك اليوم. سكرتيرته ليندا هولند كانت غائبة، واضطرّ بالتالي لاستدعاء سكرتيرة مساعدة. ومع انّ شيلا فرايزر موظفة قديرة وذات مؤهلات جيدة الاّ انها ليست بمقدرة ليندا. ولسوء حظها، كان جايك يريد انهاء عمله ومغادرة مكتبه على عجل وبالتالي لم يكن قادراً على تحمّل الاخطاء المتكررة. كان يكرر الجملة القصيرة عدّة مرات، وأسماء المواد الكيميائية بصبر وأناة. ولكنّه تضايق كثيراً في احدى الفترات وصرخ بها متبرماً ومؤنباً فانهمرت الدموع غزيرة من عينيها.

عندما انهى جملته الأخيرة، ازاح اوراقه بعصبية قائلاً لها:

«دعي السيد مايتوارينغ يوقّع المذكرة ويرسلها قبل الظهر. ستكونين قادرة على قراءة اختزالك، أليس كذلك؟».

وقفت شيلا فرايزر حزينة مستاءة وأجابته بصوت خافت:

«أعتقد... اعتقد ذلك، يا سيد هوارد. هل هذا كل شيء يا

سيدي؟».

كان شارد الذهن ويفكر بامور اخرى. وفجأة انتبه لنفسه وقال:

«ماذا؟ اوه، اوه! نعم، نعم، هذا كل شيء. يؤسفني انني أسأت اليك».

ابتسمت الشابة بارتياح ظاهر وقالت:

«لا بأس يا سيد هوارد. شكراً».

هزّ جايك رأسه واخذ يراقبها الى ان خرجت من الباب المؤدي الى غرفة سكرتيرته واغلقت الباب وراءها. ثم نهض فجأة وتوجّه الى نافذة في مكتبه الفسيح تطلّ على احدى الساحات العامة في المدينة. استدار بعد قليل وراح يتأمل ذلك المكتب الفخم بشيء من الانزعاج والانقباض. مساحة كبيرة وانارة مدروسة، سجاد ازرق أدكن وأثاث من خشب الماهوغاني المحفور، واجهزة اتصال سلكية ولاسلكية من احدث ما توصّل اليه العلم. انه ذروة ما يجب ان يكون عليه مكتب كبار رجال الاعمال في العالم. وكان جايك دائماً يفخر بهذا المكتب ويعتزّ به. اما اليوم... فما من شيء يسرّه او يفرحه. انه متضايق جداً، جسدياً ومعنوياً! اوجاع رأسه الحادّة ليست نتيجة للساعات الطويلة التي امضاها مستيقظاً ليلة امس... ولكن لشعوره بأنّ ثمة شيئاً يريده الآن ولا يمكنه الحصول عليه! طوال حياته لم يكن هناك شيء يريده ويبدأ انه ليس في متناول يده. السلطة، القوة، المركز، النجاح، المال... كلّها كانت اهدافاً سعى اليها. وحصل عليها الاّ هذا الشيء!

شتم بصوت عالٍ والقى بنفسه مجدداً على كرسيه متأثراً ومنفعلاً. اغمض عينيه بقوة محاولاً طرد الصور والتأملات التي كانت تضجّ في رأسه ومخيّلته.... ولكن بدون جدوى. جايك هوارد، الذي كان يعتزّ دائماً بانه قادر على مواجهة اي انسان ومعالجة اي مشكلة، جعل من زواجه قضية متشعبة لا يمكن تحليلها او حلّها. حاول ان يفهم لماذا لم يدرك ابداً ما كان يحدث له ومعه الاّ عند فوات الأوان! عندما عاد من الولايات المتحدة ووجد انّ هيلين كانت تسهر مع كيث مارينغ، غضب وثار. ولكنّه اعتقد انّ الأمر اقتصر على ذلك... وأنّ القضية لم تكن اكثر من مجرّد شعور بالغضب. لم يحلم ابداً انّ مسألة كتلك كان يمكن ان تشكّل منطلقاً لعذابه

المؤلم الذي يسميه الناس غيرة. ولكن الأمر ازداد وضوحاً مع مرور الايام والاسابيع، وتأكد له انّ حياته كلّها تهزّها تلك القوة البدائية المسماة غيرة. كان يرفض تلك الفكرة كليّاً، آنذاك. ولكن لماذا؟ كان يتصوّر هيلين دائماً متحفظة وباردة وغير مبالية بالنواحي الأخرى للزواج.

ولكن مشاعره هو بدأت تتحوّل تدريجياً وبطريقة تتعارض تقريباً مع رغبته وارادته. بدأ يلاحظ انه يراقبها، يريدها، يحتاج اليها. وازدادت تلك المشاعر الى درجة لم يعد يتمكّن معها من التصرف بطريقة عقلية ومنطقية. غير انّ هذا كله لا يبرر تصرفاته! ما من شيء يبرر مثل هذه التصرفات!

في العطلة الاسبوعية، انفجر كل شيء ووجد نفسه في وضع لا يمكن التخلّص منه. اعماله وتصرفاته قطعت الخيط الرفيع والضعيف الذي كان يربط اي علاقة يمكن المحافظة عليها. ولّما تذكر اللوم والتوبيخ اللذين شاهدهما صباح امس في عينيها تجدّد احتقاره لنفسه وندمه على تصرفاته. اغرق وجهه بين يديه انفعالاً عندما تذكّر خوفها ليلة أول امس. اي كابوس مرعب كان ذلك الذي جعلها تصرخ اثناء نومها؟ لا شك انه كان الوحش الذي ارعبها وافزعها! وما هو اسوأ من ذلك كله، انه لم يكن قادراً على البقاء حتى عندما توسلت اليه خائفة مذعورة. كان يعرف تماماً انه لم يعد يثق بنفسه بعد الآن عندما تكون هي صاحبة العلاقة.

هزّ رأسه بعنف وهبّ واقفاً بعصبية بالغة. لم يعد قادراً على البقاء في المكتب. يريد الذهاب الى البيت، الى هيلين، ليحاول ان يشرح لها ما دفعه لدقّ اسفين في العلاقة بينهما. هل بامكانه يا ترى ان يفهمها انّ تورطها مع مارينغ يؤذيه ويقضّ مضجعه! وانه بالرغم مما حصل في السنوات الثلاث الماضية، فقد وقع في حبها واصبحت حياته بدونها تافهة ولا تعني له شيئاً على الاطلاق!

وتذكّر بعض النساء اللواتي تعرف عليهن في حياته وعضّ على شفته سخطاً وغضباً. منذ عودته الاخيرة الى لندن لم يعاشر امرأة اخرى، بل انه حتى لم ينظر الى امرأة اخرى بهذا الهدف. وها هو، جايك هوارد المغامر الجذاب، يجد قلبه فجأة عالقاً في الشباك ذاتها التي عاهد نفسه على عدم الاقتراب منها او التورّط بها.

نزل في المصعد وكان يردّ بطريقة شبه آليّة على تحيات موظفيه المهذبة. قاد سيارته بنفسه الى بيته في حي كيرسلاند. وابتسم بفتور عندما شاهد ازهاراً جديدة في الاناء الزجاجي الجذاب الموجود في مدخل القاعة الرئيسية للبيت. وحضرت السيدة لانيمر بمجرد دخوله وابتسمت له بتهذيب وهي تحييه قائلة:

«اهلاً سيدي. أتيت باكراً اليوم!».

«اهلاً بك يا سيدة لانيمر».

وتطلّع بسرعة الى ساعة يده الذهبية فلاحظ انّ الوقت لم يتجاوز الثانية عشرة بكثير. ثم سأل مديرة المنزل بتبرّم:

«اين زوجتي؟».

«السيدة هوارد ليست في المنزل يا سيدي. خرجت حوالى العاشرة».

«اللعنة!».

وتنهد بعصبية ثم عاد يسألها:

«هل اخبرتك الى اين ذهبت؟ او في اي وقت تعود؟».

«كانت تحمل حقيبة سفر يا سيدي. قالت انها آخذة بعض الكتب القديمة الى المستشفى...».

قاطعها جايك بعصبية وقد شعّت عيناه ببريق حاد:

«اي كتب؟ واي مستشفى؟».

«لا اعلم يا سيدي. شاهدتها وهي خارجة فقالت لي ما قلته لك الآن».

«ربّاه! ربّاه!».

رفع يديه وأخذ يفرك جبينه وصدغيه بقوة وعصبية. واخذت مشاعر الترقب والقلق تزحف بسرعة وكثافة على رأسه وافكاره. وشعر باحساس غريب... وبأنه مريض.

«هل احضر لك الغداء الآن يا سيدي ام...؟».

«الغداء! الغداء! لا اريد شيئاً على الاطلاق».

ولمّا لاحظ قلقها وتألمها، رقّ قلبه وقال لها:

«حسناً، حسناً! سأكتفي بثلاث قطع صغيرة من الجبنة وقليل من الخبز المحمّص».

«كما تريد يا سيدي».

أخذت معطفه الذي كان قد القاه لدى وصوله بدون اكتراث على مقعد بجانبه، وعلقته في المكان المخصص له ثم ذهبت الى المطبخ لاعداد الوجبة الخفيفة. اما جايك فظلّ واقفاً بدون حراك لبعض الوقت، ثم رفع سماعة الهاتف فجأة وبدأ يطلب رقم جنيفر. ردّت خادمتها فطلب منها ابلاغ سيدتها بأنه على الهاتف.

«جايك عزيزي، ما اروع هذا الاتصال! هل تريد دعوتي الى الغداء؟ انا جاهزة!».

انتظر جايك الى ان انتهت من ضحكها ثم قال لها بلهجة جادّة:

«هل تعرفين اين هي هيلين؟».

«هيلين؟ هيلين؟ اليست معك؟».

أجابها بشيء من الحدّة:

«هل كنت اتصل بك، لو كانت معي؟».

«لا، طبعاً لا. آسفة يا عزيزي. وبالنسبة الى هيلين ايضاً، فأنا لا اعرف اين هي. هل اضعتها؟».

تمالك نفسه وحدّ من غضبه عندما اجابها:

«يبدو ذلك».

«يا للغرابة!».

قالتها بلهجة وكأنها تريد الايحاء بشيء ما. فسألها بسرعة:

«وماذا يعني ذلك؟»

«ماذا تعني يا عزيزي؟».

«اعني ذلك الاسلوب الايحائي لدى قولك يا للغرابة. ماذا تقصدين من وراء تلك اللهجة؟».

«اوه، لا شيء».

ثم اضافت قائلة وكأنها تتعمّد اثارة فضوله وحب الاستطلاع لديه:

«هناك... هناك بعض الأمور!».

شعر جايك بغضب عارم وبأنه كان سيخنقها بيديه المتشنجتين لو كانت قربه. وسألها بعصبية:

«وما هي هذه الأمور؟».

«مجرد امور حدّثتني بها هيلين هذا الصباح».

«هل اتصلت بك هيلين، هذا الصباح؟».
«نعم، يا عزيزي. الم تخبرك؟».
ردّ عليها جايك منفعلا وقد عيل صبره:
«لم اكن هنا في الصباح. في اي حال، ماذا قالت لك؟».
«لست ادري ما اذا كان عليّ ابلاغك بالأمر يا عزيزي. اعني... انها ربما لا تريدني ان اكشف لك هذا السر».
«جنيفر! اني احذّرك...».
ضحكت بغنج ودلال وقاطعته بنعومة مزعجة:
«اوه، جايك! كم احب تلك اللهجة الآمرة في صوتك!».
ثم تنهّدت واستعادت حديثها عندما قالت له وكأنها تفجر قنبلة في وجهه:
«في الحقيقة، قالت انها تفكر بالانفصال عنك».
لم يصدّق ما سمعته اذناه فسألها بذهول:
«تفكر بماذا؟».
«بالانفصال عنك ايها الحبيب. انا ايضاً اصبت بالدهشة!».
شعر جايك بان حدّة غضبه تتصاعد وتتزايد واراد ان يعرف السبب، فسألها:
«وهل قالت لك لماذا تريد الانفصال؟».
ردّت جنيفر بلهجة من لا يعرف الحقيقة تماماً:
«لا، ليس تماماً يا عزيزي، اعتقد انها كانت تشعر بالانهيار. يبدو لي ان تمضية العطلة الاسبوعية في وايلز لم تفدها كثيراً. ماذا حدث هناك؟ هل كانت عطلة مملة جداً؟».
شدّ على سماعة الهاتف وكأنه يريد تحطيمها بين اصابعه وقال:
«ربما!».
ثم اشعل سيكارة وسألها بلهجة جافة نوعاً ما:
«اذن ليست لديك اي فكرة عن مكان وجودها، اليس كذلك؟».
«لا، ابداً... ابداً... إلاّ اذا... إلاّ اذا...».
«الاّ اذا... ماذا؟».
«الاّ اذا كانت في... في منزل كيث!».

«ماتربنغ؟ ماتربنغ؟».
كرّر ذلك الاسم الكريه بسخط واشمئزاز، وشعر انّ الألم يزداد في رأسه. وسمعها تقول بخبث:
«انه مجرد احتمال يا عزيزي. انها... مولعة به، اليس كذلك؟».
ردّ عليها ببرودة اعصاب فائقة:
«هل هي حقاً؟ لا علم لي بذلك».
فوجئت بجوابه الهادىء والبارد فقالت له مشكّكة بمعلوماتها:
«جايك، لا تعتمد على كلامي. اعني انها... وربما ذهبت الى مزيّن الشعر. اليس ذلك ممكناً؟».
شاهد جايك السيدة لاتيمر تعود بوجبته الخفيفة فتنهّد وقال لجنيفر:
«نعم، نعم. اعتقد انها هناك».
«ستخبرني عندما تعود، اليس كذلك؟».
لم يجب على الفور فتمتمت:
«جايك... جايك! هل سمعت؟».
«نعم، نعم. حسناً سأخبرك يا جنيفر. وداعاً».
وأقفل الخط قبل ان تغريه نفسه بمواصلة الحديث او قول شيء لا يريده. وضعت مدبرة المنزل الصينية على طاولة صغيرة امام المدفأة وهمّت بالخروج من القاعة. ولكن جايك انتبه لمشاعر القلق المنطبعة على وجهها، فسألها:
«هل انت متأكدة تماماً من انّ السيدة هوارد لم تقل لي اين ذهبت؟».
«نعم يا سيدي. ولكن لا داعيَ للقلق، فهي كثيراً ما تتناول طعام الغداء في الخارج».
قطب جايك جبينه وسألها بايجاز.
«ومع من؟».
«مع السيدة سانت جون معظم الوقت، ومع... مع السيد ماتربنغ بين الحين والآخر».
«اوه، نعم! ماتربنغ؟».
وتحوّلت لهجته الى السخرية الناجمة عن الألم والغضب. ثم سألها:
«اخبريني يا سيدة لاتيمر، ما هو باعتقادك مدى العلاقة القائمة بين

السيدة هوارد والسيد مانرينغ؟».
صعقت السيدة لايتمر وبدت عليها الدهشة والاستغراب فتمتمت:
«أوه، اوه، سيدي...».
رفع جايك حاجبيه السوداوين وسألها متبرّماً:
«حسناً؟».
«انا لست في مركز يخوّلني التحدث بامور كهذه يا سيدي».
«هذا صحيح، ولكن يجب ان تكون لك آراؤك الخاصة بك. اذن؟».
كان جايك مصمماً بعناد وقساوة على معرفة الجواب، بغضّ النظر عن حدود المثل والقيم الاخلاقية التي يتخطاها. اجابته السيدة لاتيمر بجدية:
«انها لا تكاد تعرفه يا سيدي».
«عندما كنت في الولايات المتحدة، هل امضت زوجتي اي ليلة خارج البيت؟».
«في ويلتشاير فقط يا سيدي، مع السيد والسيدة سانت جون. وتركت لي آنذاك رقم الهاتف في حال اتصالك من الخارج».
«حسناً».
والقى جايك بنفسه على مقعد قريب وهو يهز برأسه من شدة الألم. ثم سألها:
«اذن فانت تعتقدين انها لا يمكن ان تكون هناك!».
«اين، يا سيدي؟».
«مع مانرينغ!».
بدا الذهول والرعب على وجهها، وقالت:
«مع السيد مانرينغ، يا سيدي؟ بحق السماء، يا سيدي، لماذا تعتقد انها قد تكون هناك؟».
«لا اعرف، لا اعرف. رباه، اني متعب جداً».
«لماذا اذن لا ترتاح الآن يا سيدي؟ بامكاني ابلاغ السيدة هوارد لدى عودتها...».
قاطعها رنين جرس الهاتف، وقبل ان تبدأ بالتحرك كان جايك قد هبّ واقفاً وركض باتجاه المدخل.
«نعم؟ هوارد يتكلم».

«جايك! اهذا انت؟ لوسيان معك».
«اوه، اوه، لوسيان! نعم! نعم! هل من شيء يمكنني القيام به؟».
قلق لوسيان من لهجته وتردّده فسأله بجدية:
«هل لديك مشكلة يا رجل؟».
«لا... لا، لا شيء».
«حسناً، ان كان هذا ما تقوله. اتصلت بك الآن لأبلغك أنّ سكرتيرتي اعدّت تذاكر السفر والحجز وما شابه. سنغادر لندن ان شاء الله في السابعة من صباح الاربعاء و...».
تنهّد جايك مقاطعاً:
«اسمع يا لوسيان! لا ادري ان كان بامكاني التقيّد بهذا الموعد».
«ماذا؟ لماذا؟ انك لن تتخلّى عن مساندتي في هذا المشروع يا جايك؟».
«لا، قطعاً لا! ولكن، اسمع! ما رأيك لو انتدبت مارتندايل لمرافقتك في هذه الرحلة؟».
«ولكني كنت اعتقد بأنّك متحمّس لمشاهدة المكان المخصّص للمعمل بنفسك؟».
«كنت متحمساً... وما زلت. ولكنّ امراً ما طرأ فجأة».
«امر اهمّ من مشروعنا؟ يجب ان يكون كبيراً جداً».
«نعم يا لوسيان، انه في غاية الأهمية. هيلين اختفت!».
«ماذا؟».
«قلت ان هيلين اختفت...».
«سمعتك... سمعتك. ولكن لماذا؟ ماذا في الأمر؟».
تطلّع جايك حوله ليرى ما اذا كانت السيدة لاتيمر تصغي الى حديثه ولكنّها كانت قد توجهت الى المطبخ عندما رد بنفسه على الهاتف.
«لا يمكنني ان اشرح لك الموضوع الآن. اسمع! سأتصل بمارتندايل واطلعه على القضية».
أجابه لوسيان بدهشة:
«لا يا جايك، لا يمكنك اطلاعه على كافة التفاصيل خلال يومين فقط! لا يا جايك، لا تتعب نفسك بدون جدوى! سألغي الرحلة في الوقت الحاضر، اذ يمكن تأجيلها لمدّة اسبوعين او اكثر بكل تأكيد. ولكن،

بالنسبة الى هيلين! هل من شيء يمكنني مساعدتك فيه؟».

«لا شيء على الاطلاق. ولكن شكراً لك يا لوسيان. اني اقدّر لك اهتمامك وشعورك».

«لا شكر على واجب، يا جايك».

ختم جايك الحديث بجملة تقليدية مهذبة ثم اقفل الخط وصعد مباشرة الى غرفته. حلّ ربطة عنقه قائلاً لنفسه انّ حماماً سريعاً ربما انعشه وساعده على التفكير بروية ومنطق. وفجأة وقع نظره على رسالة موضوعة على وسادته. اخذ الورقة وفتحها بهدوء وحذر. كانت رسالة وجيزة للغاية:

«لم اعد اتحمّل بعد الذي حدث. لا تحاول ايجادي. سأتصل بك عندما اجد مكاناً اقيم فيه. هيلين».

قرأ جايك هذه الكلمات القليلة مرتين ثم مزّق الورقة بعصبية فائقة وهو يحدّق بأسى خارج النافذة. أخذت كلماتها تضجّ في رأسه كقرع الطبول. لا يمكن ان تتحمّل البقاء معه بعد الذي حدث بينهما! كان يجب ان يعرف ان امرأة عصبية المزاج مثل هيلين لن تقبل اي اعتذار يقدّمه. فهو بالنسبة اليها رجل متسلّط، يأخذ ما يريد بغضّ النظر تماماً عن المضاعفات المحتملة. وبالتالي فهي لن تثق به بعد الآن.

رمى ربطة عنقه على الأرض بدون اكتراث او اهتمام. ثم خلع بقية ثيابه ودخل الحمام ليقف فترة طويلة تحت زخات المياه الساخنة التي كانت تصبّ بقوة على رأسه وجسمه على السواء. وبعد ساعة كاملة، خرج جايك من الحمام وهو يشعر بكثير من الراحة الجسدية والنفسية. ومع ذلك، فقد ظلّ رأسه يعاني اوجاعاً حادّة وكانت أفكاره قلقة على هيلين ومكان وجودها.

ارتدى ثيابه ونزل الى القاعة الاساسية وقد قرّ رأيه على مواجهة كيث مانرينغ. فبغضّ النظر عما اذا كانت هيلين متورطة معه ام لا، فانه شعر برغبة قوية لمعرفة ما قالته هيلين لكيث عن زواجها منه. كان كيث في مكتبه عندما دخل جايك. فابدى انزعاجه قائلاً بشيء من التململ:

«ليس لديّ متسع من الوقت. والذي يتوقع حضوري خلال. . . ».

قاطعه جايك بتهذيب قائلاً:

«ما اريد قوله لا يستغرق وقتاً طويلاً. هل شاهدت هيلين منذ عودتنا

من وايلز؟».

«وايلز؟ لم اعرف حتى انكما ذهبتما الى وايلز».

«حسناً، حسناً. سأقبل ذلك».

ثم اشعل سيكارة وسأله بصراحة وبرودة اعصاب:

«اخبرني اذن، ما هو بالضبط مدى اهتمامك بزوجتي؟».

احمرّ وجه كيث ضيقاً واجابه بشيء من الحدّة:

«كنت اتصوّر انك تعرف. اننا صديقان، وهذا كل ما في الأمر. صديقان حميمان!».

«وليست لديك اي خطط اخرى لما هو أبعد من مجرد الصداقة؟».

ردّ عليه كيث بتشنج:

«انها متزوجة منك، يا سيد هوارد!».

نفخ جايك دخان سيكارته عالياً وهو يتصنّع قلّة الاكتراث وضبط الاعصاب. ثم مدّ ذراعه فجأة وأمسك بقميص كيث وجرّه نحوه بعنف وقساوة. اختنق مانرينغ وهو يحاول الافلات من قبضة مهاجمه:

«لا يمكن ان تأتي. . . ».

«يمكنني ان افعل اي شيء اريده! واذا علمت انك وضعت يدك على زوجتي فاني سأمزقك ارباً. هل أوضحت لك موقفي بما فيه الكفاية؟».

أفلته فجأة كما كان قد أمسك به فجأة. وترنّح كيث قليلاً قبل ان يستعيد توازنه ويقول لجايك بانفعال:

«يمكنني الادعاء عليك بتهمة الاعتداء عليّ داخل مكتبي!».

«حاول!».

قالها جايك مبتسماً، ثم ادار وجهه وغادر المكتب بشموخ واباء. وقرر متابعة طريقه الى مكتبه لالهاء نفسه بالعمل. ومع انه جلس هناك يعالج بهدوء وروية يحسد عليهما عدّة أمور بالغة الأهمية، الاّ انّ افكاره ظلّت حائرة لمعرفة مكان وجود هيلين. وفي بعض الأحيان كان يشعر بأنه على وشك ان يكرهها لمغادرة المنزل بتلك الطريقة السخيفة، وبدون ان تزعج نفسها بترك عنوان او اي معلومات اخرى. وأخذ يستعرض في رأسه بسرعة اسماء الاصدقاء الذين قد تلجأ اليهم هيلين لبعض الوقت. ولكن، باستثناء جنيفر، ليس هناك اي شخص آخر في تلك المجموعة

الارستقراطية التي ينتميان اليها يمكن ان تلجأ اليه هيلين في مثل هذه الظروف. فهيلين ليست من الطراز الذي يفرض نفسه بسهولة على الآخرين.

اسوأ وقت في ذلك اليوم بالنسبة اليه كان بعد الغداء. اذ تركته السيدة لاتيمر لتقوم بما عليها من اعمال منزلية وجلس هو وحيداً يفكر ويتألم. يقوم بتبرّم وضجر ثم يجلس ثانية. وبعدها يرفع شيئاً من هنا ويضعه هناك. . . ثم ينقله اخيراً الى مكان ثالث. لم يلاحظ ابداً من قبل مدى الفراغ الذي يمكن ان يكون عليه منزل كهذا. وتساءل بكثير من الواقعية والنقد الذاتي عمّا اذا كانت هيلين تواجه مثل هذه الحالات عندما يكون هو مسافراً. لا! لا! انّ الوضع مختلف تماماً. فهي تريد البقاء بعيداً عنه نفسياً وجسدياً. وأكبر دليل على ذلك انه بمجرد حدوث تلك التطورات بينهما اثناء نهاية الاسبوع، تخلّت عنه وهجرته بدون اهتمام او اكتراث لمشاعره واحاسيسه.

دخلت هيلين البيت في حي كيرسلاند بشيء من الانقباض والانزعاج، ولكنّها اقنعت نفسها بانه يتحتم عليها الحضور عاجلاً او آجلاً. وبما ان اسبوعاً بكامله مرّ على موعد سفر جايك الى تسابابا، فقد شعرت بالطمأنينة والامان الى حدّ كبير. السيدة هوارد لم تكن راضية بقدومها الى كيرسلاند. فبعد النفور الأولي المتبادل بينهما، بدأت السيدتان هوارد تشعران بازدياد الاحترام والمحبة الخالصين بينهما. وبدأت هيلين تشعر انّ والدة جايك حزينة جداً لأنها تريد الطلاق من ابنها.

في الايام الاولى لوصولها الى سلبي، كانت السيدتان تتحدّثان بكثرة عن جايك اثناء صغره وسنوات مراهقته. وأعطت تلك الاحاديث هيلين فكرة واضحة وجديدة عن شخصية زوجها. والدته فخورة جداً به ولكنها لم تتغير او تتبدّل. وعرفت منها هيلين كيف تعذّبت هي وزوجها لارسال ابنها جايك الى الجامعة. وتبيّن لها لماذا لم يعجب جايك يوماً بابناء الطبقة الغنية الذين يحصلون على كل شيء يريدونه بدون تعب او عذاب. ولكن على الرغم من ذلك، فقد كان محظوظاً. كان يحضر الى المكان المناسب في الوقت المناسب، وساعده دماغه الفذّ الى حدّ كبير. نجح عندما اخفق الآخرون، لانه يتبع خطاً واحداً في تحقيقه اهدافه ومراميه. . . لم يسمح لأي انسان او اي شيء بالوقوف في وجهه او اعتراض طريقه.

لم تتحدّث السيدة العجوز الاّ قليلاً عن النساء في حياة جايك. اخبرت هيلين عن فيرونكا كوارتون والطريقة التي رمت فيها بنفسها عليه. كان الزوجان لا يزالان في سلبي. السيد كوارتون متقاعد وزوجته فيرونكا تتابع مغامراتها مع الشبان العازبين.

كل هذه الامور صاغت شخصية جايك وآراءه بالنسبة للنساء. كما علّمته ان يأخذ ما يعرض له والاّ يعرض شيئاً في المقابل. وفجأة تحولت اسئلة السيدة العجوز في اليومين الأخيرين من عادية الى شخصية. بدأت تحاول معرفة السبب الحقيقي لقرار هيلين المفاجىء الانفصال عن جايك. ولكن هيلين لم تتمكّن من الادلاء بأي تفاصيل، حتى لوالدة زوجها. ولذا أعدّت الترتيبات بهدوء، ولكن بعناد واصرار، على مغادرة سلبي. ولم تحاول السيدة هوارد منعها من ذلك.

أغلقت هيلين باب منزلها بأقل صرير ممكن. آخر شيء تريده الآن هو التقاء السيدة لاتيمر قبل ان تتمكّن من جمع اغراضها وحاجياتها. انها لن تتحمّل موجة الاسئلة التي ستوجّهها مدبرة المنزل. همّها الآن هو ايجاد غرفة لها في احد الفنادق بدون ابلاغ احد من الاصدقاء او الاقرباء، ثم البحث بعد ذلك عن شقة لائقة تكون مقراً دائماً لسكنها.

صعدت الدرج بهدوء بالغ وساعدها في ذلك طبعاً وجود السجادات التي تملأ ارجاء البيت بكامله. وعندما وصلت الى الطابق العلوي وقفت بتردد امام غرفة جايك. كانت لديها رغبة جامحة في رؤية غرفته مرة واحدة قبل مغادرتها ذلك المنزل الى الأبد. ولكنها لمّا فتحت الباب أصيبت بدهشة عارمة. كانت الغرفة في فوضى مزعجة. الثياب مرمية هنا وهناك، الستائر مقفلة حتى في هذا الوقت المتأخر من الصباح، ورائحة السكائر تعبق بقوة وحدّة. هزّت رأسها اسفاً وخطت خطوتين الى الداخل. وفي تلك اللحظة سمعت صوتاً قاسياً يصرخ:

«اخرجي! قلت لك يا سيدة لاتيمر الاّ تزعجيني! اللعنة عليك! اخرجي!».

صعقت هيلين وتسمّرت في مكانها وهي تضع يدها بسرعة على فمها كيلا تنطلق من حنجرتها صرخة خوف ورعب. اقتربت خطوتين لتشاهد جايك مستلقياً بانزعاج وقد بدا انه لم يحلق ذقنه او يستحم منذ عدة ايام.

رفع نفسه قليلاً على مرفقه وهو يصرخ مرة اخرى:

«اخرجي من هنا! قلت لك، اخرجي . . . !».

وفتح عينيه بتكاسل وضيق بالغين، ثم توقف فجأة عندما شاهد هيلين. لم يصدّق عينيه، ففركهما بيدين مرهقتين وهو يتمتم:

«رباه! اني ارى اشياء. . . انه كابوس!».

تردّدت هيلين بضع لحظات ثم اقتربت من السرير وهي تنظر اليه بقلق وذهول. وقالت له بهدوء:

«انك لا ترى اشياء، ولست تحلم».

ثم استجمعت قواها وقالت له باهتمام وتأثر:

«ما بك يا جايك؟ كم مضى عليك وانت على هذه الحال؟».

فتح جايك عينيه مرة اخرى وتنهّد بقوة. ثم انقلب على صدره واخفى رأسه في وسادته وتمتم بلهجة قاسية وعنيفة:

«اذهبي يا هيلين! اذهبي! لا اريد رؤية احد. اخرجي من غرفتي! انك لا تسكنين في هذا البيت، ام هل نسيت ذلك؟».

تردّدت هيلين لحظة ثم تحركت بقوة وعزم وكأنها عقدت النية على امر ما. خلعت معطفها ورمته على احد المقاعد القريبة ثم توجّهت الى النافذة وفتحت الستائر لتغزو شمس الخريف الحالمة ارجاء الغرفة بكاملها. وفتحت الجزء الأسفل من النافذة فدخل الهواء البارد ليطرد رائحة الدخان المقرفة وينعش تلك الغرفة وجوّها الخانق. ثم عادت نحو جايك فسمعته يكرر بغضب:

«قلت لك اخرجي من هنا! انا لست بحاجة لشفقتك!».

ردّت عليه هيلين بانفعال:

«انك لن تحصل على شفقة مني! بربك يا جايك، ماذا فعلت بنفسك؟».

عاد جايك الى الاستلقاء على ظهره وغطى عينيه وهو يأمرها قائلاً:

«اغلقي هذه الستائر، واخرجي من هنا».

«لا، لن افعل ذلك».

تجاهلت هيلين اعتراضاته وواصلت جمع حاجياته المبعثرة في عدّة انحاء من الغرفة.

ثم استدارت فجأة نحو السرير وقالت بلهجة الأمر الناهي:

«انهض من السرير لكي ارتّبه قليلاً».

جاهد قليلاً ليتمكن من الجلوس في سريره ثم قال لها بلهجة غلب عليها التعب والارهاق:

«لن تفعلي شيئاً من هذا القبيل! كل ما اريد معرفته منك الآن يا هيلين هو سبب مجيئك الى هنا!».

هزّت هيلين بكتفيها واجابته بصدق وامانة:

«أتيت. . . اتيت لآخذ امتعتي واغراضي. كنت أظنّ انك الآن في تسابا».

حدّق بها بتأثر وغضب وسألها منفعلاً:

«وأين كنت طوال هذه الفترة؟».

«الحقيقة انني. . . كنت في يوركشاير. في سلبي، على وجه التحديد. الآن، انهض من السرير!».

تأملها طويلاً وكأنه لم يصدق ما سمعته اذناه، وسألها:

«هل تحاولين القول انك كنت مع والدتي طوال هذه المدة؟».

«نعم، ولكني لا انوي الخوض في اي تفاصيل الآن».

ثم استدارت نحو الباب وحملت معطفها وقالت له وهي تهم بالخروج:

«ساكون في غرفة الجلوس اذا كنت تريد مني شيئاً».

«هيلين! انك لن. . . لن تختفي. . . مرة اخرى؟».

وقفت هيلين امام الباب وقد اثّرت فيها لهجته الحزينة والمعذّبة. واحمرّ وجهها رغماً عنها عندما شاهدت نظراته اليائسة ومنظره التعيس، واجابته بهدوء وبلهجة شبه مازحة:

«لا، ليس قبل ان ترتدي ثيابك في اي حال».

وخرجت من الغرفة وهي تضع يديها على وجهها الذي ازدادت حرارته وتوتر عضلاته. وفي غرفة الاستقبال، اخذت تسير على غير هدى حول الغرفة. ثم توقفت فجأة وشعرت بانها فقدت انفاسها عندما فوجئت بصوت السيدة لاتيمر:

«أوه، سيدة هوارد! كم انا مسرورة لمشاهدتك!».

ابتسمت هيلين وردت عليها بخبث متعمّد:

«هل انت حقاً مسرورة يا سيدة لاتيمر؟».
«اوه، نعم يا سيدتي، نعم!».
ثم اضافت بلهفة وهي تكاد لا تصدّق عينيها:
«السيد جايك كاد يفقد عقله قلقاً عليك. نحن... طوم وانا... لم نتمكّن من الاقتراب منه. انه في غرفته منذ عدّة ايام... لا يأكل شيئاً ولا يتحدّث مع احد...».
واغرورقت عيناها بالدموع وهي تصف وضع مخدومها الأليم:
«أوه يا سيدة هوارد! لا يمكنك ان تتخيّلي الوضع التعيس الذي يمر فيه! كنت على وشك الاتصال بوالدته، ولكنّه اقسم بانه سيطردنا انا وطوم ان نحن حاولنا التدخل».
اقتربت منها هيلين بحنان وتأثر:
«كان وضعاً مزعجاً جداً بالنسبة اليكم».
بكت مدبرة المنزل بحرارة وهي تقول:
«متأسفة يا سيدة هوارد، ولكنك تعرفين مدى تعلقي بالسيد جايك. ان اشاهده هكذا لعدّة ايام... وحيداً، تعيساً، حزيناً، يقتل نفسه بذلك...».
قاطعتها هيلين وقد بلغ بها التأثر حداً كبيراً بسبب هذه العواطف المخلصة:
«لا بأس يا سيدة لاتيمر. اذهبي الآن وانسي قلقك. اعدّي لنا قليلاً من الشاي».
«لنا، يا سيدتي؟ لك و... و...».
«ولي انا!».
وتطلّعت السيدتان بدهشة الى الباب لتشاهدا جايك يقف في باب الغرفة وقد استحمّ وحلق ذقنه. الاّ انه لم يرتدِ ثيابه بل اكتفى بارتداء المعطف الأبيض الخاص بالحمام او البحر. ارتجف صوت السيدة لاتيمر وهي تقول:
«اوه، اوه، سيدي!».
«اذهبي واعدّي لنا الشاي!».
قالها جايك بهدوء فهرعت السيدة لاتيمر الى المطبخ مطيعة و...

مبتسمة. اما هيلين فقد شعرت بقليل من الضيق والانزعاج. لقد تخيّلت انها لن تجد صعوبة على الاطلاق عندما ستشرح له ما يدور في ذهنها منذ عدّة ايام. اما الآن، وعندما نزل من غرفته، فقد شعرت بانها غير قادرة على الكلام. دخل جايك الغرفة وهو غارق في افكاره وتأملاته. ثم اشعل سيكارة وتطلّع ناحية هيلين ليسألها فجأة بلهجة هادئة وقوية:
«لماذا لم تخبريني الى اين قررت الذهاب؟».
ازاحت وجهها عنه بتردد واجابته:
«لم... لم اكن اريد ان تجدني. كنت اظن انني لو تمكّنت من الابتعاد حتى موعد سفرك الى تسابا...».
قست ملامح وجهه وتشنّج صوته قليلاً وهو يقاطعها:
«ولكن، لماذا؟ هل كنت خائفة مني الى هذا الحد؟».
أحنت هيلين رأسها وحاولت تغيير الموضوع بسؤالها اياه فجأة، ولكن بلطف وهدوء:
«كم... كم مضى عليك وانت في مثل هذه الحالة؟».
رمى جايك بنفسه على احد المقاعد متكاسلاً وغير مكترث واجابها باختصار:
«هل يهمك ذلك؟».
«ماذا تعني؟».
تنهّد جايك طويلاً وقال لها وهو يلاحق بنظراته الزائغة دخان سيكارته:
«اسمعي يا هيلين! كنت افكر في هذا الموضوع طوال فترة استحمامي. في البداية، اصبت... بصدمة او ربما بالدهشة لرؤيتك. اما الآن، فالمرحلة الأولية انتهت وبدأت افكر جدياً بسبب حضورك الى هنا. اعني... حسناً، اتيت لاعداد اغراضك. ولكن لا تدعي وضعي الحالي يقلقك. انني في احسن حال، كما ترين و...».
انفجرت هيلين غاضبة وهي تقاطعه قائلة:
«انك لست ابداً على ما يرام، وانت تعرف ذلك. السيدة لاتيمر...».
قاطعها هو غاضباً:
«السيدة لاتيمر! السيدة لاتيمر! انها سيدة عجوز ولا تفهم».

تحوّل غضبها الى الم وثورتها الى اسى وقالت:

«اعتقد انها تفهم جيداً وتعرف ما حدث».

أشعل جايك سيكارة ثانية وقال ببرودة اعصاب مصطنعة:

«هذا رأيك انت، ولن اجادلك في هذه المسألة».

صرخت هيلين بصوت يمزج بين الألم واللهفة والتأثر:

«جايك! ارجوك! لا تتحدّث بهذه الطريقة!».

«لماذا؟ وكيف تنتظرين مني ان اتصرّف يا هيلين؟ تتسلّلين الى هنا كاللصوص في الليل».

«لم يكن الأمر هكذا!».

«اذن، لماذا ذهبت الى والدتي؟ اجيبي!».

ثم هز رأسه بعنف وتابع بانفعال:

«لا، لا تزعجي نفسك بالرد. انا اعرف. ذهبت اليها لأنك تعرفين انّ بيتها هو آخر مكان ابحث فيه عنك. اللعنة عليك يا هيلين! هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟».

تنهّدت هيلين وهزّت رأسها قائلة:

«ثم ماذا؟ والدتك كانت طيبة جداً معي».

ضحك جايك بعصبية وتهكم:

«طبعاً، طبعاً! انا متأكد من ذلك. وماذا قلت لها؟ ماذا كانت حجتك لها للهرب مني؟».

«لم اعطها اي حجج او اعذار. قلت لها اني اريد الطلاق».

قفز جايك من كرسيه صارخاً:

«ما هذه التفاهات؟ وماذا عني انا؟ الا تستشيريني ابداً؟ كنت تنوين اعداد كافة الترتيبات اثناء غيابي في تسابا؟».

لم تتمكّن هيلين من التفوه بشيء بل ظلّت واقفة تحاول كبح جماح الغضب الذي يعتريها والانقباض الذي يملأ قلبها ورأسها ومشاعرها. وعندما استدار جايك فجأة متوجهاً الى الخزانة القريبة، قفزت هيلين من مكانها ووقفت امامه صارخة بتوسل وهي تمسك بذراعه:

«لا يا جايك! ارجوك! اسمع!».

تأمل يدها النحيلة الممسكة بقوة في ذراعه وقال لها:

«استمعت اليك بما فيه الكفاية يا هيلين. اولاً تقولين لجيفر انك ستنفصلين عني، ثم تذهبين الى امي! كم تظنّين انّني على استعداد لتحمّل مثل هذه التصرفات؟».

«ولكن يا جايك... كنت اظن انها الطريقة الأفضل!».

«لماذا؟ لماذا؟ هل كان تصرفي السبب؟».

صرخت هيلين بصوت حزين ومتألم:

«لا، لا! بل تصرّفي انا يا جايك!».

نظر اليها جايك ملياً بعينين معذبتين وقال لها بدهشة فائقة:

«تصرفك انت؟».

هزّت هيلين رأسها بتأثر وردّت عليه بالايجاب. احمرّ وجهه وسألها بانفعال:

«عمّا تتحدثين يا امرأة، وماذا تعنين؟ هل انت متورطة مع ماتربنغ؟».

«انت تعرف حق المعرفة انني لست متورطة معه او مع اي رجل آخر».

افلت ذراعه من قبضتها ورفع يده الى جبينه شارد الذهن، منقبضاً ومتضايقاً، ثم سألها بلهفة:

«اذن عمّ تتحدثين، بحق السماء يا هيلين؟».

بلّلت شفتيها الجافتين بتردّد واجابته بهمس وتأثر:

«تلك... تلك الليلة... عندما... عندما اتيت الى غرفتي».

اغمض جايك عينيه وسألها:

«تعنين هنا... في هذا المنزل؟».

كانت هيلين ترتجف آنذاك، فاجابته بدون ان تنظر اليه:

«اوه، جايك! انت بالتأكيد تعرف ماذا جرى!».

قطب جايك جبينه وقال:

«نعم، اعرف. تجاهلت رغبتك... ورفضتك!».

اندفع الدم الى وجهها عندما تذكّرت مشاعر الذل والتحقير الذاتي التي عصفت بها آنذاك، وتمتمت قائلة:

«صحيح، هذا ما حدث!».

هزّ برأسه متململاً ومتبرماً وقال بانفعال:

«ولكن يا هيلين، انا رجل... انا انسان، ولست قديساً! لقد طلبت

المستحيل!».

نظرت اليه والألم يعصر قلبها والدموع تكاد تنهمر من عينيها، وسألته بحزن وأسى:

«وهل فعلاً طلبت منك المستحيل؟ اذن انتهى كل شيء بيننا، اليس كذلك؟».

تنهّد جايك بانفعال بالغ وسألها باصرار:

«هل يجب ان ينتهي كل شيء هكذا؟ هيلين، انا اعرف انك تحتقرين تصرفاتي. ولكن اعلمي انه ان كان لك من عزاء، فهو قولي انني احبك، وانني لم اقل ذلك لأي امرأة من قبل!».

حدّقت به هيلين غير مصدقة وتمتمت بانفاس متقطعة:

«انت... تحبني؟ تحبني... انا؟».

تأملها لحظات طويلة ثم جذبها نحوه بقوة واحتضنها بشدة وحنان وهو يصرخ متأثراً:

«ماذا تفعلين بي يا هيلين، ماذا تفعلين؟ ان لم تكوني على استعداد لتقبّل المضاعفات، فالأفضل لك ان تخرجي من هذا البيت... بسرعة... والى الأبد!».

ظلّت هيلين تحدق به وهي لا تصدق عينيها واذنيها... وجسمها المرتعش. ثم قالت له بهمس الحبيب:

«لا، لن تتخلّص مني بهذه السهولة!».

«لا تريدين الذهاب؟ هيلين، لا تلعبي معي مثل هذه الألاعيب!».

«انا لا العب معك يا حبيبي. انا احبك... احبك بكل جوارحي وأحاسيسي! كانت غلطة جسيمة وفادحة. ظننت انك... انك رفضتني!».

«تلك الليلة في غرفتك؟ هيلين لو تعرفين كيف شعرت تلك الليلة! لمت نفسي كثيراً بسبب ذلك الكابوس المزعج. احتقرت نفسي الى ابعد حدّ، لانني حاولت استغلالك وحاولت فرض نفسي عليك».

«ولكنك في الصباح التالي كنت بارداً...».

ابتسم جايك ابتسامة خفيفة وهو يقاطعها:

«اي انسان آخر كان سيتظاهر بالبرودة. قلت لنفسي آنذاك انني وصلت

الى ذروة الحماقة وتحقير الذات. كنت اريد الركوع امامك والاعتذار اليك، متعهداً بعدم تكرار ذلك الأمر الشنيع! ولكنك أصررت على القول ان الأمر لم يكن ذا اهمية، فجنّ جنوني!».

واغرق وجهه في شعرها وهو يردد بصوت خافت:

«كانت الأيام التسعة الماضية جحيماً حقيقياً بالنسبة الي! لم اتناول طعاماً ولم انم الاّ قليلاً! شعرت بانني انتهيت، وبأني فقدت كل شيء!».

ضغطت هيلين برأسها على صدره وقالت:

«عندما اتيت اليوم وشاهدتك في الحالة التي كنت فيها شعرت فعلاً بانك حزين ومتأسف جداً لفراقي. ولا اكتمك سراً انني صلّيت وتمنيت ان تكون حقيقة هكذا. ولكن عندما نزلت قبل قليل ببرودة وعدم اكتراث او اهتمام شعرت بانّي اتمنى الموت لنفسي!».

هز جايك رأسه بعطف وحنان وقال:

«انك لا تعرفينني بعد تماماً يا هيلين. انا مضطر لاخفاء مشاعري واحاسيسي. كنت اخشى من عدم تحمّلي شعورك بالشفقة. اوه، هيلين! عندما دخلت غرفتي كنت مقتنعاً في بادىء الأمر بأني احلم او اني أمرّ في كابوس مزعج!».

«جايك! جايك! كم كنا غبيين ومجنونين!».

«نعم، ولكن ليس بعد الآن يا حبيبتي، ليس بعد الآن!».

ثم أبعدها عنه برفق ومحبة وقال:

«سأصعد لارتداء ثيابي ثم نذهب لتناول الغداء في أفخم مطاعم المدينة! يجب ان نحتفل!».

ردّت عليه هيلين بغنج ودلال، قائلة:

«افضّل الاّ نذهب! افضّل الانفراد بك بعض الوقت. هل يمكننا ذلك؟».

«ان كانت هذه رغبتك، فلمَ لا، ايتها الحبيبة!».

«اوه، نعم، نعم، ارجوك!».

ثم ابتسمت وسألته بهدوء:

«جايك... هذه الرحلة الى تسابا...».

أمسك بها ثانية وشدّها الى صدره مقاطعاً:

«لا رحلات بعد الآن! او بالأحرى. . . لا سفر الى الخارج بدونك!».

وتأمّلها لحظة بمحبة وحنان وهو يمسك وجهها بيديه القويتين، وسألها مبتسماً:

«ما رأيك بتمضية شهر العسل بأفريقيا؟».

أخذت هيلين نفساً عميقاً وردّت عليه متمتمة:

«ولكننا ذهبنا في رحلة شهر عسل عندما تزوجنا!».

«لا، لا، لم يكن ذلك شهر عسل يا حبيبتي، لم يكن! شهر العسل الحقيقي يبدأ الليلة. . .».